
ريجيس دُوبري
الزَّمَن وَالسِّيَاسَة
نقلها عن الفرنسيّة
مصطفى نادر

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزى ذكي

القاهرة

الزمن والسياسة

ملاحظات في السجن

ريجيس دُوبري

الزمن والسّياسة

مُلاحظات في السِّجن

نقلها عن الفرنسيّة
مصْطفى نادر

منشورات

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

التحكم بالحاضر : محك المادية التاريخية

الوضع الراهن ومهماتنا : هذا العنوان الباهت الحيادي ، الذي يكاد ان يكون تقليديا يعرض ويخفي في آن معا ، ما يشكل جوهر الماركسية ، وفوق ذلك ، الجانب التطبيقي من الماركسية . الى اية علاقة يشير الحرف « و » ؟ لا ريب انه لا يفيد مجرد عطف النسق : فليس هنالك وصف (للحاضر) من جهة ، يقابله من جهة ثانية دفع الى (المهمات) . غير ان تحديد المهمات وتنسيقها ـ تحديد الاتجاه ـ يتم في ضوء تحليل للوضع ، مع أن التحليل ليس المقدمة المنطقية ، ولا تحديد المهمات الخلاصة او النتيجة التي تستتبعها المقدمة المنطقية . بل هناك رابط أعمق .

(كان يمكن **لرأس المال** ، بمعنى ما ، ان يحمل عنوانا مماثلا : فنحن ننسى الى أي حد يحمل موضوعه الحقيقي طابع **الظرف الحاضر** ، ذلك ان الابحاث ، والوثائق الهائلة ، والمعلومات التي استخدمها صادرة عن الوقائع الاكثر قربا ـ بالنسبة الى ماركس عام ١٨٦٧ . وكلمة الوقائع

هنا لا تعني الاحداث الواضحة الماثلة للعيان • وعلى العكس من ذلك فان ماركس قد حدد ما كان يمثل الحاضر، في زمنه ــ نمو القوى المنتجة وعلاقات الانتاج الرأسمالية ــ وقد بصر بهذا **الحاضر** كحركة ، كسياق • ولكي ندرك ميزة الكتاب الاولى التي لا مثيل لها ، والتي لم يقلدها أحد منذ ذلك الحين ، ينبغي ان نتصور اليوم تحليلا دقيقا على غرار ما جاء في الكتاب ، يعتمد اخر الاحداث التكنولوجية والعلمية والديمغرافية (السكانية) والمالية ، والسياسية ، واخر الاحصاءات التجارية،والتدخلات البرلمانية لعام ١٩٦٧، الخ • وهي أحداث لا يجمعها بالنسبة لنا أي هيكل نظري ، بل ليس لها دلالة خاصة باعتبار ان هذه الوقائع كلها لم ترد الى اية بنية ، او اية حركة منظمة تقدم تفسيرا فوريا بظهورها ، وبظهورها على هذه الصورة بالذات) •

« الاحداث الراهنة » : ما يحدث ، ما يقدم ، ما يحيط بنا ، ما يغمرنا ، ويغرقنا • وهي بذلك تستحق ان تميز بالهلالين • انها احداث الصحف ، عالمنا اليومي • لكن المسألة الجوهرية ، بالنسبة لنا ، هي ان نعرف ما اذا كان بمقدور «الاحداث الراهنة» ان تكون مقولة علمية وضمن اية شروط • تلك هي ، في هذه الحال « اللحظة الراهنة » كما يسميها لينين او « الوضع الراهن » كما يعبر ماو •

في ضوء هذه العلاقة لا تعود الاحداث الراهنة مقولة اونطولوجية او موضوعا للتأمل ، بل تصبح معيارا لسياسة

عقلانية ، او معيارا لوجود عقلانية سياسية عملية • يمكن ان نجعل من الوضع الحالي مقولة ــ كشكل قبلي للتجربة لكن في هذه الحالة ينبغي ان نعود الى الميتافيزيقا الوجودية• هذه العودة الى المعاش ليست قطعا بلا تبرير ، لكن المضمار يتبدل : تأمل في الزمــن الانسانــي ، في الوضع الحالــي باعتباره مصير الذات (لا وجود لوضع حالي الا بالنسبـة لذات ما ، وهو قدر ، من حيث انه ضرورة احتمال • راجع سارتر) • هذا يفضي بنا الى « الكائن ــ مــن اجــل ــ الموت »وهو اعتراف نظري بهذه الضرورة التي نواجهها ، والتي ينبغي ان نهتدي اليها في شكل عملي ، وان نعيشهــا في حالة حاجة ملحة ، ان نعيش الوضع الراهن كفرصــة ينبغي ان ننتهزها ، الا تفوتنا ، كأساس يسير في اتجاه لا ينعكس • ان نكتة كينز Keynes بشأن مردود التوفير على مدى بعيد التي قال فيها ــ « على مدى بعيد نكــون قد متنا جميعا » ليس لها مدلول الا في اطار تاريخي معين ــ الغرب الفردي الملحد ــ غير ان هذا الاطار هو مصيرنــا الموضوعي جميعا • في المدى البعيد يتجاوزنــا الوضــع الراهن ، نحن واعمالنا •

ان مضمارنا نحن ، ليس في انه سيكون للناس دومــا وضع راهن ، بل في ان هذا الوضع الراهن لن يكون هــو نفسه ابدا • فالاحداث الراهنة بصورة عامة ، الحــدث المجرد في الوضع الراهن ، لا يمثل كموضوع تنبغي معرفته

ولا كمشكلة عملية ينبغي حلها ،بل كمادة ادبية ، كموضوع فني او تعميق فكري للوضعية الانسانية . وعلى العكس من ذلك ، فان المسألة الماركسية هي تحديد الوضع الراهن كحالة حاضرة ،حالة فريدة ووحيدة ، حالــة ملموسة . المسألة الماركسية هي في معرفة ما اذا كانت معرفة الفريــد والاستثنائي ممكنة ، وكيفية هذه المعرفة ، وما اذا كنــا نستطيع ان تتخلى عن التحديد الارسطي للعلم ، او التحديد الوضعي للقانون .

أن نفهم فهما جيدا مدلول هذه المسألة يعني ان نلاحظ ارتباطها المزدوج . مسألة ايبستيمولوجية ، ومسألة ممارسة سياسية . هذا يعني ان نستفهم الماركسية كعلم من جهة ، وكمبدأ للتوجيه السياسي من جهة ثانية . في نقطة التلاقي هذه تطرح المسألة الايبيستيمولوجية كمسألــة ممارسة ، وتطرح المسألة السياسية على انها مسالة علمية وهذا يعني أن علاقة المسألتين وتوحدهما هما اللذان ينكشفان هنــا . ان كبت هذه المسألة علــى يــد النزعة العلميــة الماركسية الجديدة (أو اتمام البنى الشكلية والعامة للخاصية العلمية) بنتيجتها الحتمية ، التي هي التغيبية السياسية (أو عــدم الاندراج في « الحالة الراهنة ») ، ينبغي ان تفسر كعرض من اعراض تجاهل مزدوج ، او كعرض من اعراض الهرب من مسألة التوحد ، والارتباط . ما هو « العلم » الــذي لا يفضي قط الــى تحليــل الوضع التاريخــي الراهــن

(بتعقيده ، ومستوياته ، ومـا يختص بـه مـن تفاوت ، الخ ••) ؟ وما هو التحليل السياسي او تحديد خط العمل الذي لا يعتمد استخدام المفاهيم العلمية ، وتطبيـق اداة نظرية صيغت بشكل تجريدي ؟

ان ادراك « الآن » التاريخي (في بلد معين ، في لحظة معينة ، مع ان هذا الادراك يتضمن ادراك العلاقات الدولية السائدة في العالم في لحظة معينة ، كما ان ادراك اللحظـة المعينة يستتبع ادراك ما سلف من التاريخ الوطني كله) ــ ان هذا الادراك يقوم بدور المحك بالنسبة الى صلاحيـة نظرية « العلم » ، وبدور معمودية النار بالنسبة الى قيمـة المنظر • اذا لم تتم السيطرة الفكرية على الان ، تبقى المسألة الاساسية « ما العمل ؟ » بلا أساس ولا جواب • هـذه السيطرة تتطلب معرفة مسبقة ، ودربة نظريـة ، مجـردة بالضرورة ، لكن اذا لم توفر هذه المعرفة وهذه الدربـة لجوءا نهائيا الى الصراع للقبض على الان ــ هنا ، يتوارى بالنسبة الينا جميعا الضمان الوحيد القائم حاليا بأن تتمكن الجماهير من ان تصير محركة تاريخها ، وتنتقل من حكـم الحاجة الى حكم الحرية ، الحاجة التي فهمهـا التخطيط الاجتماعي وصقلها ، وبأن تكف هذه الجماهير عن ان تكون غائبة عن المسرح الذي يقرر مصيرها عليه • اذا كان حاضرنا غير قابل للفهم ، تكون الشيوعية ، في هذه الحالة طوباوية : فلا تعود هناك سياسة علمية ، ولا توجيه ممكن

للسياق التاريخي تقوم به قوة تعي الوضع الذي تحتله في « الشروط الحاضرة » ولا يعود الغد مهمتنا بل يكون نزوة اله • والاله يهدد باستمرار • فاذا فهمنا الاحداث الراهنة ، وبالتالي مستقبلنا ، وبالنتيجة وضعيتنا كنوع حيواني : هل يكون تاريخ الانسان العاقل يوما غير تاريخ طبيعي ؟

يقول تروتسكي في ملاحظة عابرة بصدد اخطاء الاممية بعد لينين « الزمن عامل مهم في السياسة » • ولنقل بل ليس عاملا في جملة عوامل ، بل انه البعد الذي تعبر كل العوامل عن نفسها وتفعل من ضمنه • بل هو عامل كغيره لكنه عامل العوامل : انه بمثابة الفضاء للهندسة • هذه استعارة رديئة اذا توقفنا عند اقليدس ، وهي اقل رداءة بالنسبة الى الهندسات الحديثة التي لكل منها فضاؤها الخاص • واضح ان الزمن ليس مجموعة اتصال متجانسة ، اذ ان لكل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي ، لكل تشكل اجتماعي ازمنته المتفاوتة في المستوى (كل هذا بات اليوم معروفا ، مع انه مسألة برمجة ، راجع آلتوسير) ، الخ • الزمن السياسي يتسارع في مرحلة الازمة ، ويركد في مرحلة الجزر : تتعلم في اسبوع من زمن الثورة اكثر مما تتعلمه في عشر سنوات من الروتين الخ • لكن اذا نظرنا الى الزمن هنا فقط في ضوء العلاقة وضع راهن / وضع غير راهن ، على انه مطابقة خط سياسي مع ظرف ، نرى ان هذه المطابقة تتضح في اختيار الشعار الصحيح • وعلم

الشعار هو علم الاحداث الراهنة ، والشعار الذي كـان بالامس صحيحا يصبح اليوم خاطئا : كيف نعرف ما تغير اليوم ، والشيء الذي بسببه لم يعد اليوم كالامس ؟ يتم هذا بتمييز ما في اللحظة الراهنة من الفرادة ، وحصر ملامحه الاصلية ، المميزة ، المتميزة • ان التوجيه السياسي الصحيح متعلق بالزمن الديالكتيكي ، أي بتطور التناقضات تطورا متفاوتا لكنه يؤدي الى تتابع مراحل او اطوار تكون اولا ، ذات امتداد زمني مختلف (اسبوع ، شهر ، بضع ساعات او سنوات) لكنها متجانسة نسبيا ، وثانيا يمثل كل منهـا سمة مميزة ، اساسية تجعله مختلفا اختلافا نوعيا عـن مرحلة القرار السابق (وهي مرحلة غير مستقرة) •

واذن فالحاجة تقضي بمعرفة وتمييز الفاصل او المدخل الى المرحلة ، دون ان تغيب عنا الحركة الشاملة للسياق المستمر ، الذي يغير باستمرار علاقة القوى في هذا الاتجاه أو ذاك • الاستجابة لهذه الحاجة تعني تتبع نبض السياق• هكذا ينبغي ان نرد بسرعـة ، ان نمتلك كفـاءات فائقـة الحساسية لرصد الجديد ، واستشعار جدة المشكلة التي تطرحها المرحلة التي ندخل فيها وذلك لكي نقدم الاجابة الصحيحة • واللينينية تمثل هذه القابليـة علـى انجـاز منعطفات وتحولات فجائية ، أي على تغيير التكتيك مع الحالة الموضوعية وبصورة متواقتة معها • « وفن قيـادة الكفاح السياسي » ــ وهو تعبير للينين ــ هو فن الاندراج

في الـوقت المناسب ، وفي اللحظـة المطلوبـة ، في سيـاق موضوعـي •

لا تبكر ولا تتأخـر ، اقتنص « الراهن » • ان زمـن انتاج الاشياء المادية ،او تنفيذ مهمة آلية هو كمية متجانسة: فما يضيعه التوقف عن العمل يعوضه العمل الاضافـي ، والجزء الناقص في بداية الشهر يستكمل في نهايته ، ذلك ان المجموع غير مرهون بنسق العوامل • غير ان اضرابا ضائعا ، أسيء استغلاله لا يعوض ، من جهة نظر سياسية • « احيانا تلزم سنوات وسنـوات للتعويض عـن شهـور ضاعت ». (لمناسبة الفشل في اذار بألمانيا ، انظر الفصـل الرائع « التراث والسياسة الثورية » في « مباحث جديدة » تروتسكي ١٩٢٣) • ويوضحه تروتسكي نفسه في الفترة ذاتها تقريبا ، فكرة ان لينين لو لم يرسخ في الحزب البلشفي دفعة موضوعات نيسان ، ولو لم يعرف كيف يتغلب ، بعد ذلك بستة أشهر ، على « التردد العام » لدى اجهزة القيادة فارضا منفذ **اكتوبر** ، لكان استلام السلطة ارجىء الى زمن لا وجود له ، في مستقبل لا تحديد له ، وقد لا يجيء ابدا• كان كيرينسكي Kerensky يهيء سلام تسوية مع الالمان يؤدي بتسريحه الجيش الى تسريحه اعظم حشد جماهيري عرفه العالم (يتراوح عدد جنوده من عمال وفلاحين علـى الجبهات مـن ثلاثة الى اربعة ملايين) ، وكان كورنيلوف Kornilov ما يزال انذاك صالحا للاستخدام ، وكانت

السلطة التأسيسية على اهبة الاجتماع ، الخ • ولم ينقض لينين وجهة النظر هذه •

المفهوم التاملي للزمن التاريخي مرتكز الاصلاحية :

تحيلنا ملاحظات كهذه الى مفهوم للزمن يناقض مناقضة شديدة حسنا المشترك • واذ نفسر الاطروحة التاسعة عن فويرباخ Feuerbach يظهر ، خلافا لما تقوله المادية التأملية،ان المادية الديالكتيكية تفهم زمن التطور الاجتماعي على انه نشاط عملي ، لا عامل يمكن عزله ، او ثابت حيادي في التطور • نعرف ان هناك زمانية محافظة ، تتسم بفكرة الانحطاط المحتم،والتقهقر الاخلاقي والاجتماعي ، والابتعاد المتزايد عن الاصول • الزمن في انحدار وهو يجرفنا تلقائيا نحو الاسفل : ينبغي ان « ننتفض » لنستعيد مكانتنا ، وننقذ ما يمكن انقاذه • لكن لا نعرف كم يختلف زمن الديالكتيك الثوري عن الزمن الاصلاحي المسطح • ولا يمكننا المضي في التوكيد على هذا الاختلاف الى درجة الجزم بانعدام أي صلة بينهما ،اذ انهما يشتركان في ارث ايديولوجي واحد : وهو ارث النور ، وارث التقدم ، الذي ترتكز عليه ، رغم كل شيء ، صيغ عديدة شبه ماركسية او ماركسية هامشية • الزمن الاصلاحي يعمل بروح الربح والخسارة ، الجمع والطرح • ويقدر الربح والخسارة بالقياس الى قيمة مفترضة ذهنيا تصمم للمستقبل وتنبجس

راجعة الى الحاضر • هكـذا تفسر خسارة اصوات في الانتخابات على انها تراجع • وهذا التراجع يقاس في الظاهر الى تنائج الانتخابات السابقة ، غير انه يعاش بالفعل كتأخر، كمراوحة في المكان او تنازل موقت ، بالقياس الى النتيجة النهائية ، المطروحة للسياق : الاغلبية المطلقة ، او اغلبيـة كافية لتعجيل التحالف مع الطبقات المتوسطة ، الذي يعني انتصار الجبهة الموحدة ، والتحقيق التدريجي للاشتراكية ، الخ • فالزمن طريق تعبر بقليل او اكثر من السرعة ، ولا يمكن ان نسير دائما بالسرعة المرجوة ، غير ان خط الوصول قائم في النهاية ، لا يتحرك ، محدد سلفا • وهو ينتظرنا • فاذا ما حصلت هزيمة انتخابية : نتج عنها تأخر الوصول عن الموعد المنتظر ، واذا ما تحقق ربح ملموس في الاصوات استتبع ذلك زيادة قوى الحزب ، وكمية المطبوعات وعدد النواب : هكذا يرتجى الوصول في وقت مبكر لان زيـادة في السرعة قد اكتسبت • تحدد النهاية منذ البدء وقياسا عليها يحسب الموقع على الخط رجوعا منها بمقارنة المسافة التي تم اجتيازها بالمسافة المتبقية•حسابات الاتجاهالاصلاحي هادئة دوما لانها في الواقع تصفية حسابات • واننا نجـد في انتظار النهاية المتشاغل هذا ، انتظار **المساء العظيم**، الذي يتم الاقتراب منه او الابتعاد عنه ، قليلا او كثيرا ، لكن الذي يبقى موعودا ، نجد فيه الموقف الدينـي القديـم

الكامن في الاليات الاكثـر دنيوية ، الاكثـر « علمية » •
وفي الحق ان الهرطقة المغرقة في القدم تكمن في الانحراف الانتخابي •

كانت الاشتراكية ـ الديموقراطيـة الالمانيـة الهائلـة (الهائلة حسابيا) التي قادت الاممية الثانية وفتنت الاحزاب العمالية الاوروبيةفيبداية القرن بنوعية تنظيماتها الجماهيرية وكمية اعضائها (أكثر من مليون !) وعلم قادتها ، تؤجج بسرور ذكرى حروب الفلاحين في القرن السادس عشر ، دون ان تقصد استخلاص العبر منهـا شأن انجيلـز • وكـان كوتسكي Kautsky على وفاق تام مع منذر Münzer وعمال السبائك في مونستر Munster ، لا من اجل احياء التراث القومي (كما كان انجيلز يحرص على ان يوفـر لالمانيا تراثـا في مستوى التراث الفرنسي وبخاصة بعـد هزيمة ١٨٤٨) أو من اجل تمجيد ما فيه من بطولة ، بـل لان الامل بمملكة صهيون في منتهى طريق الآلام لم تكن غريبة عن هذا الصبر الذي ترفعه الاصلاحية الى مستوى البرهان النظري • كذلك لا يجوز ان ننسى تدخل عامـل تاريخي مباشر في التكون اللاواعي للزمن التأملي الخاص بجميع النظريات والممارسات الآلية • فقد كان انعدام ايـة تجربة تاريخية للاشتراكية قبل ١٩١٧ يؤدي بالنسبة الـى الاشتراكية الديموقراطية الالمانية انذاك ، الى التوهم ان ثمة بالفعل « خط وصول » ، محددا تحديـدا دقيقـا ،

متزامنا مع سيطرة الحزب على السلطة ، حيث تزول بعد هذه السيطرة التناقضات والمحـن والحيل الملطخة البالية ، وينفتح عالم جديد ، يتميز بشكل مفاجيء عـن الجحيم الرأسمالي القديم • كان لازما ، منذ ذلك ، ان تتعلم بفضل نشوء عدد من الدول الاشتراكية ، ان خطا كهذا لا وجود له ، وان الجولة لم تكن قد ربحت اطلاقا بشكل نهائي ، وان صراع الطبقات نفسه ، وعلى نحو خاص ، لا يجري في خط واحد مستقيم وفقا لطريقـة مرسومة سلفـا • ان الانقطاع في تنظيم السلطة السياسية لا يتطابق آليا مـع الانقطاع في علاقات الانتاج الاجتماعية (التمييز بين ملكية الدولة بقوة القانون لوسائل الانتاج وسيطرة المجتمع عليها بقوة الواقع ، بين قرار التأميم والادارة الاجتماعية الفعلية الخ) ، وهو كذلك اقل تطابقا مـع تغـير ايديولوجيـة الجماهير ، والاخلاق ،واشكال الوعي واشكال السلوك الاجتماعي الذي يتيح ، وحـده ، الكلام على « قبـل » و « بعد » • ولزم ان تتعلم كذلك ان تناقضات جديدة اخذت تنمو في الاشتراكية ، وان التناقضات القومية فيما بين الدول الاشتراكية ذاتها يمكن كذلك ان تبلغ في نموها درجة التنافر والحرب • كانت هذه التجربة التاريخية تنقص الحركة العمالية (الاشتراكية الديموقراطية) الصوفية خفية في العقود الاولى من هذا القرن •وقد اصبح كشف الحساب بدءا من النهاية اكثر صعوبة ذلك ان فكرة النهاية ذاتها ،

اصبحت موضع شك بكل ما تحمل الكلمة من المعـاني : رجعوية مسيحية (الملكوت ، السعادة فيما وراء الخط) ، وحسابية (المجموع النهائي للارباح والاصوات والمقاعـد البرلمانية فوق الخط الشامل للكميات الواجب جمعها) ، وتاريخية (نهاية مرحلة من تاريـخ العالـم ، مطلقـة ولا تنعكس) •

وأيا كان الامر ، فان هذا التصور للزمن التاريخي لم يختف ، ولا يمكن أن يختفي نهائيا • ولنذكر أنه راسب في قراراتنا ، عالق بجسدنا أو بالاحرى يمسك بنا • ومن الضروري أن نشير الى الجانب المخدر الذي يخالط هـذا التركيب الايديولوجي (بامتلاكه قوة الخيالي وحضوره) ، واذا ألحت بنـا الحاجة الـى مسكن لتهدئة آلام العمل وشكوكه ، ينبغي ألا ندرج المخدر على حساب العلم •

فرضية اولى : ان الزمن التاريخي يمتلك مقدرة عفوية علـى التجميع • فكل مرحلة مـن مراحله (الزمن قابل للانقسام ، بحسب الوحدة الزمانية المختارة ، الى أجزاء متجانسة ومتتابعة) تختزن العناصر التـي يسمح جمعها بالانتقال الى مرحلة أعلى ، الى طور متقدم في سلم التطور الاجتماعي : وهذا يتطابق جيدا مع قانون الكمية/النوعية (في الظاهر) • في هذا المفهوم نوع من التشبع بالزمانية الرأسمالية ــ الصناعية • فرأس المال عمل متراكم • والعمل الحي حصيلة العمل الميت ، المجمد في رأسمال ثابت : عملية

التراكم غير محدودة ، فهناك دوما في النهاية أكثر مما كان موجودا في البداية • وهكذا فان الانتصار ينتج عن عمل سياسي متراكم في مدة تطول أو تقصر ، يتراكم في شكل خبرة الحزب ، ونمو منشآته ، وعدد ناخبيه ، وتضامن بنيته التحتية الخ ، ومجموع هذا كله يشكل نوعا من رأس المال الثابت : هو ما جمعته الحركة منذ نشوئها • هذه العمليات الحسابية تفرض أحيانا الطرح : كخسارة ناخبين في وقت معين ، أو الغاء جريدة ، أو تسجيل أشواط للطبقة المنافسة ، الخ • لكن هذا الطرح عابر ، مؤقت • فطالما أنه ما من شيء يضيع حقا ، فسوف نجد في النهاية ، بشكل ما ، ما خسرناه في مسيرتنا : هناك اذن طـرح في الاعمال لا في الحقوق • والحركة الشاملة ستنصف هذه الخسارات • وسوف يعترف التاريخ بخساراته • فما الخسارة الا الوجه الموقت الماكر وأحيانا الخادع للربح المحتم لكن المقنع موقتا ، والمعلق • الاستنتاج العملي : لا شيء يتعذر تعويضه •

الفرضية الثانية : الحركة التاريخية محددة بنهايتها ، وبتعبير آخـر : تلعب النهاية دور القصدية الكلاسيكية • فكرة النهاية هـي سبب الحركة الفعلية ، تؤمن الوحدة والتماسك بـين آلاف الحركات المحليـة ، والتقدمات ، والهزات والارباح غير المنظورة التي تتجلى الحركة الشاملة من خلالها • هذا كما لـو كنا نكتب تاريخ الماضي بصيغة المستقبل الماضي ، جاعلـين النهاية في البداية ، والمستقبل

الذي نعرفه في حاضر لم يعرفه بعد ، ويكتب تاريخ الحاضر كماضي مستقبل نعتبره ماضيا • وبتعبير آخر ، فان الجمع الذي يتم تلقائيا يلزمنا بالرجوع الى مجموع مثالي ، يعتبر حاصلا ، ويقوم بدور المرتكز والضمان للجمع الجاري • فلكي تتصرف وكأن التاريخ يصنع نفسه ، بالجمع والطرح ، يتوجب الاعتراف انه صار مصنوعا • فالمتحقق يدعم ما لم يتحقق بعد • وطبيعي أننا نلمس هنا تأثير هيجل ، حتى وان كان أثر كوندورسيه ، أي النزعة التقدمية في عصر التنوير هي التي تقوم بالادوار الاولى •

ان المجموع المثالي ، أو فكرة المجموع تؤكد عصمة السياق التجريبي للتجميع • فلا يمكن اذن (أي القادة ، والمناضلون ، والجماهير نفسها) الوقوع في خطأ جذري ، أو بالاحرى لا يمكن أن يقع الخطأ الا بسبب خلل مـا • فليس للغلطة السياسية أثر ايجابي بل أثر سلبي : انها تؤخر السياق ، تعرقله ، لكنها لا تؤثر في طبيعته • الغلطة التي تقترف هي دوما غير جوهرية •

الاستنتاج العملي : لا شيء يتعذر اصلاحه •

هـذه هـي باختصار • وبلغة فلسفية بالضرورة ، مسلمات موقفنا المشترك ، أو حدنا الادنى من جرعة المخدر• القوة السياسية المستمرة لما نسميه النزعة الاصلاحية ، ترتكز عليها : على ضعفنا • « النزعة الاصلاحية » تمثل اغراء لا

يقهر ، اغراء في مستوى جبننا • فلنرجع الى الارض •

عقبة الاصلاحية : ظرف الازمة

في ألمانيا ، مثلا ، باعتبار أننا تحدثنا عنها ، أمثولة يجب استخلاصها مما آلت اليه خلال نصف قرن ، أقوى حركة عمالية ماركسية في أوروبا ، ترسخت بصورة ضخمة منذ نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٩ : تأسيس الاممية الثانية) في وطن الاشتراكية العلمية • من غير اللائق التذكير بتاريخ الاشتراكية الالمانية : ألان فيه حقائق لا يجوز أن تعرف ؟ لكل منا تاريخ يخفيه • وثمة تواريخ لا تذكر : ١٤ تموز هو ، بالنسبة الينا ، واحد منها (كما لا يتحدثون في فرنسا ، في عائلة بورجوازية تحترم نفسها ، عن أيار ١٩٤٠ • ملايين من الجنود الفتاكين ، وفي مقدمتهم الجنرالات ، ينتشرون في الريف كأرانب صغيرة ، وكان يجب ألا يحدث هذا لكي تستمر فرنسا في الوجود • وتفسر الطبقة الحاكمة ذلك بأن العاجزين خانوهم) • وبالنسبة الينا فعل « المرتد كوتسكي » فعلته • وبعد ذلك حدث ، مع الاسف ، ما حدث في كانون الثاني ١٩٣٣ • ان تايلمان Thaelman شهيد ، وليس ستالين مرتدا • أضف الى ذلك أنه لا يوجد ، اليوم ، أو لا يكاد أن يوجد أي شيء تقريبا في الجمهورية الاتحادية ، ثلثي ألمانيا • ليس جديا أن نعرض بهذا الشكل نشوء ــ زوال الحركة العمالية الالمانية فهي

ليست مزحة بل ملحمة مأساوية ضخمة لـم تنتج شيئا ، (أو مـا يجيز الناس لانفسهم اليـوم أن يسموه في ألمانيا الغربية ، شيئا) • ولا أملك هنـا الوسائل لكتابة تاريخ التناقضات الاجتماعية في القرن العشرين في جملته• فلنقتصر علـى جانب معروف : خط صاعد ــ صعود الاشتراكية الديمقراطية حتى الحرب العالمية الاولى ــ سقوط ، تموز ١٩١٤ ، صعود واسع علـى الرغم مـن التعثر ، سقوط ، ١٩٣٣ ، الانسحاق • ثمة محاولتان كبيرتان لـ « الجمع » لكنهما تصطدمان مرتين بـ « أزمة » ؛ الجمع لا يتم ، أو يفعل خلافا للتقديرات وللحس السليم • تموز ١٩١٤ : بقي قرار مؤتمر بال وهما ، وافقت الاشتراكية ــ الديموقراطية في الريخستاغ على اعلان الحرب ، اندمج العمال ، بكاملهم تقريبا ، في الامة المحاربة • كانون الثاني ١٩٣٣ : التقى هتلر بفون بابن Von Papen عند المصرفي شرودر Schroder أقوى حزب شيوعي في أوروبا الرأسمالية يغيب عن المسرح، في داشو Dachau وبالنسبة الى القاعدة كذلك ، بـين جماهير نورمبرغ Nuremberg ، ١٩٦٩ : أول أيار ، تظاهر العمال في شوارع برلـين الغربية ، وكولونيا Cologne وهامبورغ Hambourg ــ دون أن يرفعوا علما أحمر • وأمـام مسيرة للطلاب اليسرويين Gauchistes ، صفـق نقابيون لقائدهم حين أعلن : « لم تعد الاشتراكية في بلادنا ألمانيا ، قضية راهنة » • لماذا ؟

ان أزمة تموز ١٩١٤ تطرح القضية القومية في شكل تاريخي خاص • هذه القضية الاساسية التي كتبها باستمرار تراث الماركسية الثورية منذ لينين ، والذي دفع غاليا في الممارسة ثمن هذا الكبت النظري ، لا تهمنا هنا • أما الازمة الاخيرة بعد الحرب حيث اضمحل حزب تايلمان وانتهى معه استقلال الطبقة العمالية فتطرح قضية ديكتاتورية الرأسمال المالي أو الفاشية والاخطاء التاريخية للاممية الشيوعية وهي قضية معروفة بشكل أفضل وسبق أن عولجت • غير أن لهاتين الازمتين قاسما مشتركا هو قلب التوقعات وتضليل المناضلين ، وجرف منظمات قيادية محنكة ، وعلى الجملة خلق الفراغ • ان الوضع المتأزم هو ، بالنسبة الى الحس السليم ، أي الى اللاجدلية ، واقع مذهل، وتحد للعقل،ودافع للشك الايديولوجي•ولا تبدو على هذه المسألة أية سمة من سمات الخطورة ، لو لم يكن ينبغي قبول واقع آخر : لا تمكن السيطرة ، في الممارسة المباشرة ، على ظاهرة لا نعرفها ، نظريا ، معرفة صحيحة • أو بشكل أدق : نجد أنفسنا منذ البداية خارج الحالة التي تسمح لنا بهذه المعرفة •

سبب نشوء الازمات التاريخية :

العودة الى الاسس الديالكتيكية

يتقبل الزمن التاريخي عقدا استراتيجية تسمى

« أزمات » . وتشكل هذه العقد عهدا ، بمعنى أنها تحدد نهاية سياق Processus وبداية سياق آخر . ان انحلال « الازمة » يقدم مخرجا لوضع جديد يتميز نوعيا عن الوضع القديم ، والعبور من القديم الى الجديد لا يتم ، في تاريخ المجتمع ، بجمع العناصر المنفصلة أو طرحها ، أو اضافة (عناصر جديدة في الكل القديم) أو بانقاص (عناصر قديمة)، ففي لحظة ما من سياق التغير المتواصل ، الكامن ، الناشط خفية ، يتم تبلور منفتح ، في سطح جميع العناصر التاريخية المتصارعة ، أي نقطة انقطاع ، لحظة حرجة من الازمة . اذاك تصبح العودة الى التوازن القديم مستحيلة ، لكن ليس من المحتم كذلك أن يحل محله توازن جديد متفوق وتقدمي من الوجهة التاريخية بالنسبة الى القديم . ان اللحظة الحاسمة تقدم نفسها اذن كترسب كيمائي ، محير ، سريع لعدد من الاحداث غير المتوقعة، المعاشة في الريبة والغموض، وتبدو نتيجتها صدفوية . ان ظرف الازمة (السياسية ، الاجتماعية ، العسكرية مع تآلف العوامل كلها) هو ، بالنسبة الى من يعيشونه ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، شديد الوضوح وشديد الغموض في آن . من الواضح للجميع أن شيئا أساسيا يتقرر الآن ، لكنهم لا يتفقون على نتيجته : « كل شيء ممكن » ، يقولون . بعبارة ثانية : لا شيء أكيد . ان الازمات لحظة حاسمة لكنها غير قابلة للتقرير المسبق ، فهي بالضرورة صدفوية في انحلالها القريب لكن

الخاضع لمسار كل عقلاني ؛ تحدّد ولا تحدّد ؛ حل للتناقضات السابقة هو نفسه متناقض ، ومن هنا تظهر الازمات في مظهر المفارقة بالنسبة الى من لا يعرف أن يرى في عودتها المحتمة ظهور مفارقات التاريخ الخفية ، الظهور البسيط الخالص ـ أي المعقد المشوب ـ لقوانين التطور الاجتماعي .

لقد صاغ كبار ممثلي الجدلية المادية كل ما هو جوهري عن مميزات العودة الدورية « للازمات » في كل تطور اجتماعي ، وعن معناها وضروراتها . يمكن اعتبار هذه الجدلية نفسها ، في أساسها ، كنظرية للازمات داخل الطبيعة والمجتمع . في أساسها يعني في قانون التناقض الذي يلازم جميع الظواهر ، الذاتية والموضوعية ، وفي المزايا الخاصة لهذا القانون الاساسي التي تعترف بها الجدلية الماركسية ـ العلمية اللاهيغلية ، أي الجدلية المادية (خصائص التناقض المادي المختصرة في شكل تربوي ولهدف سياسي ـ الكفاح ضد الدوغمائية ، ضد التقليد الآلي للمثال الروسي ومن أجل اتجاه خاص ، مستقل ، صيني حصرا ـ سنة ١٩٣٧ بفضل ماوتسي تونغ) . ان نظرية وحدة الاضداد (التي تحدد الجدلية في رأي لينين) تقبل نظرية الازمة كحالة خاصة وضرورية . ان ما يظهر في مظهر الوحدة يخفي وجود الانشقاق ، وما يظهر في مظهر التضاد يخفي تضامن الاطراف المتعارضة ووحدتها . في الوحدة لا تتوقف

الاضداد عن الصراع حتى اللحظة التي تتفكك فيها الوحدة وتولد وحدة جديدة تتصارع فيها الاضداد مـن جديد ، الخ • ان لحظة الانقطاع هذه هي ما يمكن تسميته بالازمة ، وهي مرحلة صراع الاضداد ، ملتقى وحدتين ومرحلتين من التاريخ ونظامين سياسيين أو اجتماعيين وعلاقتين بين قوى ثابتة • ان نسيان القانون الاساسي للتناقض ، ولو موقتا ، يضفي دون ابطاء على الانتقال مـن الاستقرار الى عدم الاستقرار ، من الهدوء الى الاضطراب ، من التوازن الى الاختلال صفة الحدث العارض ، الاعتباطي ، الذي ينتج عن سبب خارجي ، ليست له علاقة عضوية مع السياق المعني • السبب الخارجي : تدخل أجنبي ، محرض خطر ، عميل هدام ، الخ ، هو اذن المسؤول عن الازمة ، ونجد حلا للازمة حتى نجرده من قدرته على الايذاء • ان التصور الميتافيزيقي أو الآلي للعالم لا يستطيع أن يرى في أية اعادة نظر في عالمه الا رعدا قاصفا في سماء صافية • لهذا يحتاج الميتافيزيقيون الى شرطة فعالة ويقظة ، للقضاء على الاسباب الخارجية ، ولهذا يرقد ميتافيزيقي في كـل عامل مـن عوامل القمع البورجوازي • ألا تكمن في أساس مشكلة « الازمات » ورقابتها ، الاحجية الميتافيزيقية القديمة : كيف يمكـن للواحد أن يصير آخـر ؟ كيف يمكن أن يتحول شيء أو ظاهرة الى ما يناقضهما (الرأسمالية الى اشتراكية ، الضغط الوطني الى تحرر وطني ، الطبقة السائدة الى طبقة مسودة

الخ) ؟ الجواب معروف جدا : كـــل شيء يحمل في ذاته نقيضه ، وكل ظاهرة كذلك • والصراع بين مظهري التناقض الخاص (للشيء ، للظاهرة المعنية) يكوّن العامل المحرك لتطور الشيء أو الظاهرة • ان حل التناقض يحدد نهايـــة مرحلة من هذا التطور ، لكن سرعان ما يظهر مع المرحلة الجديدة الناتجة نموذج جديد من التناقض ، ولا نهاية لهذا السياق • الموت وحده يمكن أن يوقفه ، فقانون التناقض دائم ما دامت الحياة• اذن ، لن يحدد قطعا مجيء الاشتراكية نهاية التناقضات في التاريخ ، كما لاحظ لينين قبل الثورة البلشفية ، الذي ربما لـــم يكن يدرك مدى أهمية هـــذه الملاحظة لانه استبعد الفرضية القائلة بأن هذه التناقضات يمكن أن تتخذ ، في صميم العالم الاشتراكي شكل التضاد ، أي شكل الازمة المفتوحة ، والمجابهة العنيفة • هناك اذن ، في صميم التوازن والاستقرار المتلاحم ، اختلال واضطراب وتصدع • ان سبب الازمات ، التغيرات (النوعية) التـــي تؤثر على حالات التوازن أو تهددها بشكل واضح ، يكمن ، في طبيعتها ، في هذا التحول الدائم (الكمي) الذي يمثل طبيعتها الحقيقية • ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نستبعد فعل الاسباب الخارجية ، الظرفية ، العرضية • لكن هـــذه الاسباب الخارجية لا تقدر أن تفعـــل فعلها الا بوساطـــة الاسباب الداخلية ، البنيوية ، الجوهرية ــ التـــي تؤلف العنصر الحاسم في الازمات الاجتماعية• ان الحس المشترك،

أقدم صديق للقمع الميتافيزيقي ، يقـر ذلك دون شك اذا وصل في تفاهاته الى نهايتها : الصدمة العاطفيةلا تحتم داء الصرع عند رجل يتمتع بصحة جيدة . والصحافيون الاجراء وخدم الامبريالية لا يظهرون قط أي انفعال ازاء فكرة أن « ذهب بكين » أو « عملاء فيديل كاسترو » يمكـن أن تتغلغل في سويسرا أو الدانيمارك .

وصف الازمة

اذا تذكرنا هـذه المبادىء الاولية ، واذا كان مـن المسموح (الحقيقة هي أنه غـير مسموح والا سقطنا في اللغو) عزل الشروط الملموسة والميزة الفريدة كـل مرة للتناقضات الفعالة في وضع معين ، والتي تضفي على الحل النقدي شكله التاريخي الخاص ، فان سلسلة من الملاحظات تفرض نفسها حالا •

١ ـ في المستوى السياسي ، المستوى الذي تتجلى فيه وتتطور وتتحدد « الازمات » ، تكون تغيرات الزمانية (أو كثافة الزمن الموضوعي) مرتبطة بايقاع تطور التناقضات داخل التكون الاجتماعي • هذا الايقاع تابع بدوره لدرجة انصهار التناقضات (أو لدرجة تحديدها) ، ولحظة الازمة تحدد اللحظات التي يفضي فيها الانصهار في نقطة معينة الى اختلال التوازن القديم (من العالم : بلـد معين في لحظة معينة ، روسيا سنة ١٩١٧ ، الخ ـ من بلد معين في لحظة معينة ـ في فرنسا ، الجامعة سنة ٦٨ ، الخ) • ان سرعة التناقضات تستدعي زمنا سياسيا سريعا ، ينعكس بتفاعل

مسلسل على الحلقات الاخرى الاقل « تحددا » ، كما ينعكس في اللحظة نفسها على حلقة الانقطاع • ويتعارض الزمن المتفجر ، المتسارع ، المتشنج من التفجر (من التضاد، في شكل أزمة) مع الزمن المتباطىء سياسيا بفعل النضج (التناقضات) : تمزق ظاهري ، تشقق مزيف ، ذلك أن زمن الازمة ليس الا زمنا عاديا مركزا ، تقريبا كالسياسة ، في مفهوم لينين ، التي تشكل الاقتصاد المكثف • الحركة مطلقة ، دائمة ، لكنها لا تتخذ دائما الشكل نفسه : انها تتخذ على الاغلب شكل الجمود الظاهري • واذ تتركز ، تتجلى فجأة في طبيعتها الحقيقية ، وتكشف عن وجهها كصراع بين النقائض • « حين يصير الخارق أليفا » كما كان يقول غيفارا الثورات • لكن نقدر أن نضيف أن الخارق هو الاليف المكثف ، المنكشف لنفسه ، وأن لحظة الازمة السياسية العامة تكشف الخارق المختبىء في أعماق الصراع الطبقي الاليف على المستوى الاقتصادي أو الايديولوجي • ان زمن الازمة يعطل المعايير السارية المفعول ، ويخلخل العادات ، ويقلب قواعد السلوك المتبعة ، لكن اذاك تتجلى القاعدة وتغيب الاعذار الكاذبة التي كانت تحجب عن الخصوم بداهة الصراع • كما لو أن القاعدة (تنظيم حركة المجتمع بواسطة صراع الطبقات) لا تتحقق الا في الاستثناء• ومهما يكن من أمر هذه التغيرات ، فان الانقطاع أو « الازمة » أو استمرار السياق « العادي » يجب أن ترد

الى أساسها المشترك لكي يكون كل منها قائما بالآخر ، كل منها قاعدة للآخر ، يمكن فهمها بالتبادل • ان كلا منها تمنح للآخر وضوحها الخاص ، كلحظتين من سياق واحد •

٢ ــ ان لحظــة الانصهار الحرجــة (أو انفجار ــ انكشاف التناقضات التي تراكمت وبلغت مرحلة التناثر) تسبب اذن علــى السطح ، في مستوى الصراع المفتوح ، السياسي والعمومي ، انقطاعا ارتداديا ، انشقاقا سرعان ما يتعمم علــى جميع مستويات الكل الاجتماعي المقصود : التمييز بــين الاحزاب القائمة (طبقات وجبهات طبقية) ، الفصل بين العوامل الجماعية ، الاحزاب أو القادة السياسيين (أعداء أو أصدقاء ؟) ، وهذا كله يؤدي ، بواسطة الازمة ، الى وضع حدود لمراحل السياق المعني (نهاية المجرى القديم، بداية المجرى الجديد) • غــير أن هذا التمييز ــ البرق الخاطف ، العفوي جدا حتى أنه يشبه حركة آلية ، لا فعل لــه الا أن يجمع في الشكل البسيط للمعارضة ، للنزاع ، للرقم اثنين ، المجموعات المتناثرة للقوى القديمة ، مشددا على خصائصها الكامنة ، مبرزا محددا اياها • هكذا تقدم الازمة صورة سهلة القراءة ، متضادة ، واضحة ، عن مجال القــوى الموضوعيــة ، والاتجاهــات الايديولوجيــة ، والشخصيات القائدة • انها بالمعنى الفوتوغرافي للكلمة ، تعطي للتاريخ « تحديدا » جيدا • غير أن لرفع الغموض ، وازالــة الاختلاط النسبي في النطاقات السياسية للقــوى

الاجتماعية أو للافراد ، وحظوظ الالتباس ، ثمنا غاليا • انهما يعنيان تضييق المحتملات والامكانيات التاريخية ، باقتطاع الاطراف ، وتضييقا للممر الرئيسي • الوصول الى نتائج رائعة بطرق ضيقة • نبدأ بقناة اختناق • الازمة السياسية الخطيرة تتخذ الشكل القسري للبديل أو للمأزق : « الآن أو هيهات » (أي مستقبل غير محدد ومرجأ الى أمد طويل) ، « الواحد كله أو الآخر كله » • (ثورة أو ثورة مضادة • الوسط ، بتعبير انتخابي ، مسحوق) • أشكال ملائمة ، متطرفة ، وأحيانا وهمية لبدائل ملموسة أكثر اعتدالا • يبقى تصلب الخيار ، الحياد المستحيل ، غياب التذبذبات الوسيطة لصالح المنطق الجديد « بلوغ الحدود القصوى » • الصراع من أجل السيطرة مفتوح وهو لا يقبل الاعذار الكاذبة • ومنذ أن ينكشف التناقض ويتجلى على حقيقته ، يعمد أحد مظهري الازمة اما الى أن يعكس موقفه واما الى أن يدعمه : موقف سائد أو مسود : ذلك هو الرهان ، والازمة هي التي تبت ، باعتبار أن نقطة الحرج في الازمة هي نقطة الترجيح •

٣ ـ اذن ، هذه هي المفارقة : ان الازمة ، كلحظة انهاء لسياق متناقض ، تبدو في غاية الاشكال • انها « تصفي المسألة » ، انها هي نفسها مسألة رهيبة ، وهي اذ تجزىء تميل الى التبسيط ، والواقع أنها تشكل في ذاتها شبكة معقدة من العوامل التاريخية ، المتداخلة جدا، المتنوعة جدا ،

المشوشة جـدا بحيث أن أفواجا كاملة مـن السياسيين والجدليين والنظريين الماركسيين البارزين قد ضلوا فيها الى الابد وبحيث تنبثق في كل مرة أزمة حاسمة ، اليوم شأن الامس • ان الازمة تحدد اللحظة التي تتجلى فيها الجدلية الداخلية لتاريخ محدد بوضوح كامل ، انها هـي نفسها معتمة ، محددة بعوامل مختلفة متضافرة ، ان في كل أزمة التباسا نموذجيا • وحل الازمة ، بالنسبة الى الذين يعانونها ويتواجهون فيها ، بالنسبة الى كلا الفريقين المتواجهين ، لا يفرض نفسـه ببداهة « الشكل الواجب » وبساطته • ان الشروط الموضوعية تشكل أساسا ، اطارا من المقترحات لا يمكن تجاوزه ، فتحد مجال المبادرات أو الردود الممكنة على الحدث ، غير أن هذا الاساس يبدو آنذاك أنـه يتراجع ، يتقلص ، يتحيد بحيث يدفع الى الامام ، بوضوح خارق ، دراماتيكي ، طاقة الابتكار ، والفاعلية الواعية للقيادات السياسية ، بحيث أن الشكل الذي يفرض نفسه على النظر الجماعي ، ينتقل من الموضوعي الى الذاتي ، الى غير المحدد، الى المبادرات الخاصة التي يقوم بها بعض الاشخاص الذين برزوا فجأة على المسرح • وبما أن الوضع الحرج يظهر على وجه التحديد كأنه مفرق وبديل وتصعيد متطرف ، فهـو يشدد فجأة على سلطة التقرير لدى الزعماء أو المسؤولين ويؤكدها • لم يكونوا قط في مثل هذا الاستعجال ، ولم يظهروا قط في مثل هذه الدرجة مـن الحرية ؛ ان حظهم

بالمبادرة ضعف كثيرا ولهذا فان لقرارهم آهمية خطيرة • ان عجزهم أمام الحدث يمنحهم ، بمعنى ما ، سلطة ، « هالة » من السلطة والسيطرة والمسؤولية المتزايدة • حرية مزيفة : المسألة في نقطة الافتراق ، هي معرفة أي من الجهازين نحرك ولاي من متتاليات الاحداث الضرورية يتوجب الخضوع بثبات وبوضوح كاف للتمكن ، الى حد ما ، من مراقبة الصعود وتوجيهه • وحيث تفترق الطرق (يمين ـ يسار ، مقاومة ـ استسلام ، دكتاتورية هذا الفريق أو ذاك ، الخيار الذي قد يكون أحيانا بين موتين ، أو طريقتين للموت (بالنسبة الى الافراد) أو طريقتين للفشل (بالنسبة الى السياسيين) ، وهاتان الطريقتان ليستا متعادلتين أبدا أو حياديتين ، وهنا كذلك يجب الاختيار) ، لا بد من التخلي عن طريق للسير في طريق أخرى ومعالم الاشارة على طرق التاريخ تكون بشكل عام ، في تلك اللحظة ، محجوبة أو لا تكون موجودة أصلا • وهي لا تظهر ، الا فيما بعد ، للمؤرخين والنقاد الذين يعنون باستعادة الماضي • تنصب المعالم بعد فوات الاوان • توضع المعالم « انتبهوا ، خطر ـ خففوا » أو « أسرعوا » بعد أن يحدث الصدام ، حين لا يعود يفيد في أي شيء ، أو بالاحرى حين لا يعود في امكانه أن يخدم الا الذاكرة الاجتماعية ، باعتباره « أمثولة من التاريخ » • بحيث ، ان حدث اختيار واللاختيار سيكون اختيارا كذلك ، لا يمكن التصميم الا على الاقل سلبية •

أو ليس هذا استنتاجا ، غير أنه رهان ، أي قفزة عقلانية (طبيعي أننا هنا نستبعد قوالب نظرية الالعاب ، المقتصرة تحديدا على اللعب ، أعني أنها تتضمن عددا من الالزامات تقبلها الجهات المعنية وتحصى باستيعاب كلي • وفضلا عن ذلك ، فــان الحساب المنهجي اذ ينقل الى ميدان الكفاح السياسي للطبقات ، اذن في أوضاع جديدة كليا وفريدة ، يفترض تصورا مثاليا للتطبيق من حيث هو عمل منفصل عن المال ، غير جدلي ، أي بما هــو كذلك عديم التأثير في التحليل الاخير ، أي لامد قصير ، باعتبار أن الامد القصير هو الطريقة الفعالة، او طريقة التنفيذ لكل ممارسة سياسية)• هــذه القفزة عقلانية لانهــا تستطيع أن تقــدم أسبابها ، تستخلص برهانا ، غير أن الاستخلاص لا يتم الا بتقطع ، فوق تصدع في البرهان نفسه ــ واذا كان البرهان يقوم في تحليل الشروط الموجودة ، الحاضرة ، المعطاة ، فهنالك قفزة فوق الشروط الحاضرة ، قفزة في المستقبل ، توقع ، أي هناك على الجملة سياسة • والضمان الاقصى ، بواسطة تحليل المعطى ، لصحة التوقع ، هو من شأن رجل السياسة مــن حيث هــو رجل علم • أما القبول بمجازفة التوقع والبرهنة بالعمل على صحته ، فذلك من شأن العالم مــن حيث هو رجل سياسي • هناك بالضرورة فجوة بين هذين المستويين • هذا هــو كل موقف ماركس ازاء العمومية La Commune ، وهنا يجب أن تعاد قراءة الرسائل المختلفة

لكوجيلمان Kugelman في نيسان ١٨٧١ ، وليس صدفة أن يكون لينين قدم لهـا ، مشددا على كل مـا يمكن أن تتضمنه مـن المثير ، الفاضح • حتى أنه ليخيل ان لينين يستمتع بالالحاح على الفجوة (لا بد هنا من رؤية النص)• الشيء نفسه بالنسبة الى « ١٨ برومير » ، لكن بالطريقة التهكمية : في سنة ١٨٤٨ ، « كانت المناسبات تضرخ : هنا رودس ، هنا ينبغي القفز » • ولـم يشأ البورجوازيون الصغار الديموقراطيون أو لم يستطيعوا أن يقفزوا الـى الامام ، ولهذا كانوا مجبرين فيما بعد على القيام بسلسلة من القفزات الصغيرة ، لكن الى الوراء حتى التوقف النهائي في ٢ كانون الاول • يبدو أن طرف الازمة يعكس في داخله بالذات وظيفته التاريخية العامة الخاصة به : قلب الوحدة القديمة بقفزة الى الوحدة الجديدة ، قفزة نوعية ، انقطاع الانتقال من مرحلة الى أخرى تليها ، من نظام سيطرة طبقية الى نظام آخـر • ان الازمة العامة تمثل بذاتها ، بسياقها الفعلي ، تحديا للاستمرار على الصعيد المنطقي وفي تعاقب الوقائع الملموسة • فثمة فجوة بين الوسائل المتوفرة والهدف الذي يجب تحقيقه (في روسيا ، بالنسبة الى البلاشفة بعد أوكتوبر) • فجوة بين مـا يمكن فعله ومـا يتوجب فعله (هذه الفجوة تحولت ، وقد دفعت الى أقصاها ، الى فاجعة سياسية ومغالاة قاتلة لدى توماس منذر والثورات الفلاحية المجهضة كما يحللها انجيلز) • فجوة محتمة ، مشتركة بين

الازمات الحاسمة كلها ، بين القرار الضروري والعناصر المتوفرة لتحويل هذا القرار الى حكم ، فجوة بين ضرورة القيام باختيار ، في لحظة معينة (في بعض اللحظات الممتازة حيث يختصر سياق معقد ، معطى ، ويعرض نفسه كاملا في بديل بسيط ، يحول نوعيا ، في هذا المنحى أو ذاك ، اتجاه السياق : الايام العشرة التي سبقت ثورة أوكتوبر ، القرار نفسه الذي اتخذه لينين بالانتقال الى الهجوم العلني على سلطة الدولة تشكل المثل ، النموذجي أو الاسطوري للحظة كهذه ، لكن الواقعي جدا بالنسبة الى الذين عاشوه في التباس الحاضر المباشر ، الذي لا يمكن جلاؤه) ، والاحتمال القوي جزئيا ، الكامن في شروط هذا الاختيار • من هنا ، كل أزمة تبعث الدوار ، ففي لحظة ما ، اللحظة الحرجة في الازمة ، يدوي التاريخ عميقا كأنه الهاوية ، ثانية خاطفة ، طرف من الليل (مثلا ليل سمولني المشهور ، الذي يتحدث عنه البلاشفة في مذكراتهم) ، نظل في الهواء ، معلقين بانتظار لا شيء ، اشارة ، نقطة ارتكاز • حتى الذين هم أكثر ثقة يشعرون بفراغ في أعماقهم • انه الفراغ الذي يفصل الفعل المقرر ، المؤكد كضرورة ، كشيء لا مفر منه ، وشروط امكانيته النظرية والفعلية التي تتحسس أنها لم تجتمع كما كان مفروضا (لكي يفرض الخيار نفسه كبداهة) • الواقع أن ما يكشفه الوضع الحرج هو أن البنية الجدلية للتاريخ تنعرض للناس دائما كمصادفة ، يعني أننا في التحليل الاخير

لا نواجـه الضرورة الا في شكل ملموس مـن أشكـال الاحتمال ، محدد كتحديد هذا الاحتمال ولانه هو حصرا • (أوضح آلتو سير هذا كله كما لم يوضحه أحد ، في أهم نصوصه وأجداها : التناقض والحتمية المعقدة) • من العقل في السياسة أن تتجاوز المعقول أحيانا : خطوة الى الامام ، لا أكثر ، لكن المسألة الدائمة هي أن تتخذ القرار الخطر • الفلاسفة والايديولوجيون، هؤلاء الذين يشاهدون التاريخ، كحضور جالسين أو كقضاة ، خائفين مـن الفراغ ، هـم عاجزون عن اتخاذ هذه القرارات ، عاجزون حتى عن فهمها ، الا باستعادة الماضي • انهـم لا يعرفون الوجل ، فالحسرة الصغيرة ليست للسعداء • ويبدو أن غيفارا كـان يشعر شعورا حادا بهذا الوجل أمام ما يتضمنه كل عمل حاسم من الاشياء التي لا يمكن تسويغها ، وربما كان يشعر به بشكل أفضل ممايشعر أي شخص آخر ، بفضل نفاذ فكره الدقيق الرياضي ، وتكونه النظري ، وصفائه العقلي الخارق • لكنه كان اذاك قادرا على أن يتعدد ، أن يغلق في اللحظة المناسبة، فم المنظّر ، المحلل ، « المثقف » الذي كان فيه ، لكي ينخرط بتصميم صامت ، راسخ في الموجود للعمل ، فيما كان مقررا• وبقدر ما يكون الوضع مريبا ، ويعرف مدى الريبة فيه ، يظل هادئا • كان يحسن أكثر من غيره رؤية الخفي ، الخطر ، الحتمي ، لكن منذ أن يتخذ قراره لم يكن يزيده الخطر الا ثباتا وتصميما ، ان الهدوء في هذه اللحظات حيث « كل شيء

عالق بطرف الخيط » ، هو أفضل خدمة يمكن أن يؤديها القادة الى المكافحين الذين يحيطون بهم • والتشبث بالخيط لن يجعلنا أكثر رسوخا •

٤ ـ الازمة حتمية ، لكن نتيجتها ليست حتمية • اذا أحصينا الازمات الكبرى في التاريخ المعاصر التي تنجت عنها التغيرات الحاسمة في الرأسمالية ، فاننا نلاحظ أنها كانت تتضمن دائما شيئا من الزيغ ، والتلوث ، والمفاجأة • الازمة الثورية الملائمة ستكون ، سيتوجب « منطقيا » أن تتطابق مع اللحظة التي تصطدم فيها بالصدفة الضيقة لعلاقات الانتاج ، نمو منتظم وعادي لا يعكس ، في حينه ، في نهاية مرحلة المخاض ، انفجار شكل جديد من التنظيم السياسي بل تفتحه الذي يتطابق مع تأميم وسائل الانتاج • الواقع أنه اذا كان ظرف الازمة الذي يمكن أن تنشأ منه الثورة الاشتراكية أليما دائما كالولادة ، فان المولود يظهر دائما بطريقة غير منتظرة : ننتظر رأسه ، فتجيء قدماه أو يجيء بشكل جانبي • قبل أوانه ، أو طرحا ، أو هزيل البنية • غير متطابق مع جوهره : لهذا لا نتعرف اليه دائما • (الاشتراكيون القدامى في الاممية الثانية ، مثلا ، حتى الاقل ارتدادية بينهم ، شق عليهم أن يتعرفوا في الجمهورية السوفياتية الفتية سنة ١٩١٧ الى الصورة المتطابقة مع حلمهم) • هذا اللاتطابق مع الذات ، وهذه اللامساواة الداخلية يشكلان حصرا امتياز وأصالة كل مجيء فعال

في التاريخ الواقعي • ان ايقاع الفكر الهيغلي Avènement
فيما يسير نحو تحققه عبر الاحتمالات الجغرافية ، العرقية ،
الاقتصادية ، الدينية ، الخ ، ليس فيه ما يفاجيء • أن يحل
محل الفكرة التناقض البسيط بين قوى الانتاج وعلائق
الانتاج أمر يتيح للجوهر الاقتصادي تقدما ساطعا ، مقدرا ،
منتظما عبر الظواهر السياسية ، وتصبح كل أزمة سياسية
ضحية ، مؤاتية كأزمة النمو ، حيث تشكل الترويضات
والاخفاقات نفقات التطور الصغيرة ، وتنوءات العمل
السلبي • فالواقع اننا نعرف ان الصفة الزائفة او غير السوية
(بالقياس الى معايير تجريدية) في الظروف الحرجة ، في
الاوضاع الثورية الملموسة تعود الى ضرورة الانصهار
الفريد للتناقضات ، بحيث ان التناقض الاساسي او
الاقتصادي يجد انه هو نفسه محدد بمجموعة العوامل
المتنافرة يصل فيها الى درجة الانقطاع • هذا الانقطاع لا
يكشف عن نفسه مسبقا ، ولا عن التحديدات الملموسة التي
تسمح بالتحقق منه حالا ، وتلك هي الوقاحة الشديدة
لتاريخ الثورات • فلا ينتظر من هذه الجهة ، ولا في هذه
الساعة ، ولا بهذا المظهر • انه يشوش المخططات ،
والستراتيجيات المقررة سلفا • يأخذها من الخلف ، وغالبا
ما تفاجيء أزمة ما ، فتقاطعه ، وتعرض للخطر تطورا
سياسيا « ملائما » • اذاك يشعر المسؤولون انهم مجبرون،
ان ازمة تفرض عليهم خيارات واتجاهات وانقطاعات

يرفضونها • لم تكن الازمة ساطعة قط مع ممثليها ــ ضحاياها ، ونادرا ما احاطت بها هالة النصر او الضرورة • ان **المساء العظيم** ، حين يسقط فوقنا ، هنا وهناك ، يبدو بمقدار ما نستطيع الحكم على مدى نصف قرن ، انه يشبه فجرا غامضا وباردا • فالملحمة هي ارتداد الى الماضي • ثمة شيء مزعج ، من وجهة نظر دينية او رؤياوية في الهجوم المفاجىء للازمات الثورية الكبرى • الهزات تخيب من يعتبرها حاسمة • فالتاريخ الفعلي لم ينه مضايقاته • فحتى في الظفر ، تمتزج الانتصارات دائما بالهزائم •

ان الوضع المتأزم ، حين يحدث فجأة ، معقد على غرار الكل الاجتماعي الذي يؤثر فيه بكامله ، وعلى غرار التصادم بين التناقض الذي يجعله ممكنا • ان تبسيط ميدان كفاح الطبقات يتم في « الازمة العضوية » ، بواسطة تعقيد شديد أو تآلف عوامل موضوعية مستقلة عن الارادة • والمأساة الحرجة تنشأ في هذا التناقض ذاته : الارادة او الفعالية الواعية لدى الافراد تحركها دوافع بسيطة ، مبسِّطات ، غير أن عقلهم يجب أن يتفهم الحالة الوقتية بكل تعقيدها (من أين صدرت ، ما الذي جعلها ممكنة الحدوث ، ماذا تكشف مما هو أساسي في وضع الطبقات او اقسام من الطبقات بعضها بالنسبة الى البعض الاخر ، الخ) • الازمة ، من جهة ، تبسِّط ميدان الممارسة السياسية في صيغة المأزق أو البديل في صعود الخصمين الرئيسيين الى

الحدود القصوى ، وهي ، من جهة ثانية تكشف بالتتابع تشابك عناصرها المكونة وتآلفها وترابطها • انها لا تتدرج في المعايير التي تفرضها : في الحد الاقصى ، ارهاب أبيض أ وارهاب أحمر ، اندحار أو انتصار، ثورة مسلحة أو مقاومة سرية • وهي في طريقة نموها ، تستخدم عددا كبيرا مـــن العوامل ، متصلة بشكل غير ثابت ، تجد ملاحظتها عـــن كثب : لننظر الى لينين كيف أحصى تآلف الاسباب الداخلية والدولية التي سمحت بقيام أوكتوبر وباستمرار أوكتوبر • الازمة عقدة يصعب حلها ، لكنها يجب ان تحل • يجب تفكيكها نظريا أو ادراك تعقيدها حدسيا بشكل أو آخر ، لكن لغاية واحدة هي ان نجد لها مخرجا ملائما من خلال قرارات « عملية وشعارات » بسيطة عن قصد ، بل تبسيطية المظهر • في سنة ١٩١٧ ، صيـــغ برنامج لينين الزراعي ، في بضع جمل ، أخذت في الواقع من برنامج الـS.R. وكشفت ، أمـــا برنامجه السياسي فثلاث كلمات : السلام ، الارض ، الخبز • لكن ليس لهذه الكلمات من العمومية غير المظهر ، فهي في الواقع مكثفة جدا تستخدم الوسائل الناجعة في ظرف الازمة وتدل على اختيارات يمكن تحقيقها فورا : المفاوضات توزيع الارض ، الاستيلاء الاقتصادي • تلك هـــي التبسيطية الشهـــيرة للشعارات البلشفية : بساطـــة التكثيف وانعدام التجريد • انهـــا توجز تحليلا ملموسا لوضع ملموس ، يحفل بسبب ذلـــك بتحديدات عديدة •

من هنا قدرتها على الانتشار بين الجماهير ، وقوتها المفجرة . ان مرتكزاتها خارجها ، في أماكن محددة ، قائمة في حاضر الوضع . وهي لا تشبه في شيء تلك الصيغ العمومية التي تقدم تحلية في نهايــة الولائم عــن السلام ، والسعادة ، والديموقراطية ونزع السلاح نزعا تاما شاملا . ان الشيوعية براء من هذه التشكرات . فما يحول صيغة خيرية الى شعار سياسي هو قدرتها على أن تفعل فعل العتلة ، أي قدرتها على الاستناد الى اللحظة الحالية ، المحددة بشكل ملائم ، كأنها تستند الى نقطة ارتكاز . حسبنا لوحات انتخابية تعلق على جدران الهيكل !

ليس ثمة تاريخ عمومي ولا أزمات عمومية . غير أن القاسم المشترك بين ظروف الازمة كلها هو انسداد آفــاق المجرى العادي للاحداث . الجديد يشق طريقه عبر القديم بشكل يبدو معه ، حين تنفجر الازمة ، كأنه يفضي الى طريق مسدود . هذه هي النهاية الواضحة لـ « أفق نيفسكي » الذي نبه لينين الى أنه لــم تكن لــه أية علاقة بالمجرى التاريخي . ان الطريق الاكثــر سهولة تتورط في طريــق مسدودة ، لهذا ينبغي التحول الى يسار أو حتى الى اليمين، القفز الى الامام أو التراجع الى الوراء ، لكن تغيير الاتجاه في كل حال . هكذا تبدو الازمة ، حين نكون داخلها ، في اللحظة المباشرة . الواقع أن التاريخ هو دائما أقل تأزما مما يمكن أن نعتقد لاول وهلة . فهو ينزع الى الالتفاف حول

العقبة أكثر منه الى مجابهتها ، وهو يبتكر مع الوقت حلولا غير متوقعة وملتوية لكي يخفي مشكلات « لا تحل » في التسويات ذات الامد الطويل • أما ، في المدى القصير ، فقد كان لينين على حق تماما في وصفه الازمة العامة للنظام الرأسمالي في نهاية الحرب العالمية الاولى : « الشروط الموضوعية التي خلقتها الحرب الامبريالية هي التي أوصلت الانسانية كلها الى طريق مسدود ووضعتها أمام المأزق : إما الاستمرار في السماح بهلاك ملايين الناس والقضاء على المدنية الاوروبية ، واما تسليم السلطة في جميع البلدان المتمدنة الى البروليتاريا الثورية ، واكمال الثورة الاشتراكية » •

(بعد عشرين سنة ، أبرزت أزمة أخرى وحرب عالمية أخرى خيارا حاسما كذلك ، صيغ بعبارات أخلاقية أكثر منها سياسية : « الاشتراكية أو البربرية » • وسحقت النازية ، غير أن التاريخ ، بالنسبة الى أوروبا الرأسمالية ، كما قد يقول لسان قارص ، تملص من الاختيار ، مغيرا الكلمات بعد الحرب تغييرا طفيفا : جاعلا الاشتراكية بربرية نوعا ما ، مع ستالين وعبادته ، مضفيا شيئا من الاشتراكية على البربرية الرأسمالية ، مع صندوق التقاعد ، والتخطيط الظاهري • وبالنسبة الى مظاهر التناقض ، تبدو مراحل التوازن النسبي ، والمراحل الطويلة التي تسبق الازمات أو تليها ، كمحاولة تهجين أو اشابة • وهذه هي مراحل التاريخ

اللقيطة ٠وهي ضرورية) ٠

ثمــة اذن اختلال توازن في ظرف الازمة : فهــو ، موضوعيا ، معقد الحتمية Surdéterminé وهو ، ذاتيا ، غير محتم indéterminé (بالمعنى النسبي طبعا ــ نسبة الى الشروط الموجودة : طقسية « كـــل شيء ممكن » ــ مارسو ــ بيفير Marceau-Pivert سنة ١٩٣٦ ، بارجونيه Barjonet سنة ٦٨ الخ ٠ ــ وهو يشكل تحديدا الوهم الذاتي ، الصفة المميزة للحظة الازمة) ٠ ذلك هو العنصر الدراماتيكي الاول : هذا الاختلال في التوازن يشكل ، بمعنى ما ، نابض كل « توتر » ٠

العنصر الثاني : التناقض المفاجىء للزمنـــين الماضي والمستقبل في الحاضر ، يشكل مفصلا لانه بالضبط يربط بين زمنين منفصلين عادة ٠ الازمة تختصر ماضيا معقدا ، وتجسد مقدما علـــى الاخص ، مرحلة مقبلة ٠ تسطــح المنظورات البصرية : البعيد يرتـــد الـــى القريب المباشر ، ويصبح في الدرجة الاولى من الاهمية ٠ لهذا السبب بالذات يمكن أن يقال عن الحل المقترح للازمة ، والخط المتبنّى ، والسلوك المراعى في هذه اللحظة ، بأنها جميعا حاسمة : فهي تقرر الاتجاه الى أمـــد طويل مقبل ٠ والقرار الذي يتخذ آنذاك بعيد المدى ٠ الدراماتيكي في كل أزمة هو التقصير المفاجىء للآجال ٠ كل ما ينتظر العمل يجب ان يعمل حالا وما سيعمل سيطور نتائجه الى فترة طويلة ٠ الانفصال بين

صعيد الستراتيجية وصعيد التكتيك يكون في حده الادنى.
الستراتيجية تمثل كتكتيك ، تتلبس بالتكتيك مباشرة ، تلتصق به . تبطل المراهنات على المستقبل ؛ المستقبل (يتقرر) اليوم . الستراتيجية تقبض نقدا ، في قرارات تتخذها فوراً. وتبطل الاعذار . من هنا كثافة « لحظة الازمة » ؛ الكثافة البالغة لادنى كلمة ، للصمت ، للا عمل ذاته . يكون تعقد الحتمية بحيث يأخذ كل شيء معنى ، حتى الفراغ ، وبخاصة الفراغ والغياب (غياب ديغول في آخر أيار — لكن ديغول عبقري في المناورات الكبرى ، لا سيما أن خصومه « رجال عاديون » ، قادة غير مخلوقين للازمات لانهم لم يخلقوا في أزمات كديغول نفسه) .

وتنشأ هذه الكثافة عن :

أ — تراكم المجازفة الشاملة فوق نقطة محددة من المكان والزمان الاجتماعيين . المجازفة : بقاء الامة ذاته ، في زمن الحرب . بتعبير آخر : استمرار نظام سياسي ، معنى مرحلة تاريخية ، الخ . هذه المجازفة تؤثر في كل ، أو ، بشكل أكثر دقة ، المخاطرة ذاتها ، الحيرة ذاتها هما اللتان تؤلفان من العناصر المستخدمة كلا . « كل شيء » متعلق بقرار ، بنتيجة هذه المعركة أو تلك ، بنجاح هذه المناورة أو تلك. هذا ما يجعل المعركة من ناحية استراتيجية حاسمة ؛ يمكن أن تكون زهيدة في ذاتها ، دون معنى ، بل مثيرة للسخرية ، لكن أهميتها استراتيجية بمعنى أن الكل المعني ،

يتلبس بها ، (أو بمعنى أنها مكثفة الحتمية ، مرة أخرى) .
كانت معركة فالمي Valmy نزهة حربية على الاقدام ، لكنها كانت ذات أهمية حاسمة . أما معركة آيلو Eylau فكانت مجزرة ، لكنها من ناحية استراتيجية كانت دون جدوى ودون فعالية . فلا بد ، في الحدث السياسي أو الحربي ، من اعتبار علاقته بالسياق ، لا طبيعته الخاصة . فحواجز الحي اللاتيني كانت ، من حيث طبيعتها الخاصة ، فكاهات. غير أن تمفصلها الملموس مع حقبة رمزية (أيار الايام العشرة) ، وظرف اقتصادي وكفاحات عمالية هو الذي جعلها ، من الناحية السياسية ، حاسمة . هذا التمفصل ذاته لم يصبح ممكنا الا بفضل وجود سمات فرنسية ، بنوع خاص ، (دور « المثقف » ، الغائب في انكلترا أو ألمانيا ، والتقاليد الثورية ، وقبل كل شيء وجود طبقة عمالية مكافحة ومسيَّسة) ، وجود شروط اجتماعية ، سياسية ، اقتصادية لن تجتمع بعد اطلاقا كما حدث أن اجتمعت . ان حواجز الحي اللاتيني ، من هذه الناحية ، أقيمت من خارج ، (أقامها الماضي الفرنسي ومعامل الضواحي) ... وكان ينقص أن تقام ماديا في مكانها ، وفي تلك اللحظة بالذات .

ب ـ تفاوت العلاقات سبب/نتيجة ، في فعالية القيادات السياسية ، وهذا انعكاس واضح للتراكم . ان غلطة ، أو زلة ، أو خطأ بلا أهمية في الزمن العادي تتحول الى أخطاء يتعذر اصلاحها في ظرف الازمة ، لانها ارتكبت

في زمان حدوث التراكم ومكانه • هذا التضخم في النتائج أو الانعكاسات صعب المراقبة (مطالبة ميتراند ، في مؤتسره الصحافي ، بالتمسك بأيار ٦٨ لان الناس ما يزالون يتحدثون عنه) • ان معاني الكلمات المتبادلة انعكاس لتعقد حتمية الازمة • والمفارقة هي أن ثمة زيادة في هامش المبادرات ، و « حرية الاختيار » ، ونقصانا في التسامح بالخطأ ، في آن • من هنا تفعل كل أزمة فعل الشرك •

هناك عنصر آخر دراماتيكي ، أي غير آلي أو قدري : اذا كانت خاصية الازمة هي في تحديدها المعسكرات و « الصدمات » الممكنة ، من مختلف جهات الخط الفاصل، فان على كل حزب يكافح أن يقوم باختيار لا يفرض نفسه ، مع ذلك ، تلقائيا• (من البدهي أننا نقصد بعبارة «الاختيار» تطبيق أو اعتماد خط ، أي رفض الخط المعاكس الذي يقدم نفسه هو كذلك كخط ممكن ، ولا نقصد العمل الوقتي لوعي منفرد) • والاختيار صعب ، لانه ليس مانويا ـ بين جوهريين أخلاقيين ، وليس واضحا من الناحية المنطقية • الطريق يفترق ، لكن هناك خطر في الجانبين • هكذا يفترض التقدير الصحيح للمجازفات تجديد المنظورات التي محتها الحاحية الازمة • وما اعتبر في المدى القصير أنه أدنى خطر يمكن أن يظهر ، حين ينظر اليه من أفق المدى الطويل ، أنه الخطر الاكبر • هذا المنظور الاخير تمحوه على وجه الدقة الفورية الغامضة للازمة • فاذا جدد نصل

بشكل عـام الى نتيجة تبدو ، في نظر الذين يستسلمون لخديعة الامد القصير ، غير معقولة جزافية ، وبلا سند •

أمثولة ١٨٧١ واصطدام ماركس ـ كوجيلمان

كذلك ماركس ازاء العمومية : ان انخراطه هو في آن حماسي وانقيادي • فبعد التعبير عن الاعجاب أمام هجوم الباريسيين المفاجيء الذي لم يشكل موضوع نقاش بالنسبة اليه أو الى كوجيلمان ، بقـي التقييم السياسي للمخاطر المتجشمة ، وهذه نقطة أساسية في تباين الآراء ، ومسألة عصيبة في العمل • وقد اختار كوجيلمان السلب ، فهـو نموذج « المكافح الطيب » ، الحـذر ، المخلص ، المتزن ؛ الثورة المسلحة سلبية لانها سابقة لاوانها ، فهي لا تحترم النظام المنطقي للازمنة : تربية سياسية أولا ، تنظيم ، فانتقال الى العمل : « الفشل سيحرم العمال ثانية من قادتهم فترة طويلة • لا تبخس هـذا الشقاء قيمته ! ففـي رأيـي أن البروليتاريا في حاجة الى لحظة التربية أكثر جدا مما هي في حاجة الى الكفاح المسلح »[١] • وقـد رد عليه ماركس بشدة ، لكن جانبيا نوعا ما ، مغيرا وجهة المسألة المطروحة : عمقيا ، يستشعر هو كذلك الهزيمة ، فهو ضمنا ، يوافقه ، على هذه النقطة • وهو يرد في رسالته المؤرخة في ١٧ نيسان بما خلاصته :

---

(١) « ١٨ برومير » ، المنشورات الاشتراكية ، ملاحظة الناشر ، ص ١٥ •

أ ــ ان التاريخ سيكون « صوفيا جدا » اذا فرض مهمات تكون شروط تنفيذها ، كل مرة ، مجتمعة بشكل لا خطأ فيه •

ب ــ أنه اذا كانت الشروط الموضوعية لكفاح قصير الامد غير مؤاتية ، باعتبار الاشياء هي ما هي ، فان عدم الكفاح سيخلق في المدى الطويل شروطا أقل مؤاتاة كذلك بالنسبة الى الكفاحات المقبلة •

ج ــ ان الكفاح المسلح ، ولو انهزم ، سيحدد منعطفا، مفصلا حاسما في تاريخ الدولة والمجتمع الرأسماليين • وفي مثل هذه الشروط ، وحيث أن الخيار مطروح في الاحداث ، مـن الافضل مواجهة مزيد من المخاطر **الآن** ، بغية تجنب مخاطر أخرى أكثر عـددا وخطورة ، لكنهـا ستتكشف **فيما بعد** • يستند ماركس الى الشروط المعلومة ، ينطلق من الموجود • أما كوجيلمان فينطلق ممـا كان واجبا أن يكون ، وأن يفضـّل • يـرى ماركس الحاضر في منظور المستقبل ــ وتلك هي الميزة الجوهرية التي كان غوركي يعترف للينين بها ، الميزة الجوهرية اللينينية • وبتعبير أدق : من وجهة نظر المستقبل • غير أن الحاضر هو الذي يحسم ، فهو نقطة الانطلاق • أما كوجيلمان فيعطي الحاضر أمثولة من وجهة نظر مستقبل افتراضي ، مثالي • انه يرفض حالية اللحظة الراهنة باسم تقييم مثالي ، تجريدي لمـا يجب أن يكون • انــه لا يعي كون الحركة وحدة وكونها تسير في

اتجاه واحد لا ينعكس[1] .

أحيانا نجـد عند ماركس شيئا من لينين ، لينين في أواخر حياته (لينين النابليوني بسخرية في قوله : « ننخرط ثم نرى ») ، وبخاصة في مرحلة أزمات ١٨٤٨ و ١٨٧١ . ويمكن ، تحت ضغط الحادثة ، الكلام على « يسروية » Gauchisme ، على ارادية عرضية ، سيطرت على ماركس لحظة أو غداة الهزات الاوروبية الكبرى ، في انفصال جلي عن بعض الاتجاهات النظرية في كتاب **رأس المال** ، حيث يبرز داروين واضحا بالنص الكامل ؛ والوحدة بين ماركس هنا وماركس هناك ما تزال تنتظر التحديد ، فليس في هذه المسألة أي شيء واضح .

أمثولة ١٩١٤ ويسار زيمرفالد

تتضمن صحة العمل السياسي ، وفقا لتشبيه غوركي ، نوعا مـن الرؤية المزدوجة : « رؤية » القريب والبعيد في

---

(١) مقطع من رسالة ١٧ نيسان الى كوجيلمان : « لا يجوز قطعا في هذه المرة البحث عن المصادفة البائسة الحاسمة في الظروف العامة للمجتمع الفرنسي ، بل في حضور البروسيين في فرنسا ، وفي تمركزهم على أبواب باريس . كان الباريسيون يعرفون ذلك جيدا. وذلك ما كانت تعرفه الحثالة البورجوازية في فرساي . ولهذا بالضبط وضعت الباريسيين أمام **خيار** قبول التحدي أو الاستسلام دون كفاح . وفي الحالة الثانية ، سيكون تثبيط الطبقة العمالية أكثر فداحة من خسارة عدد من الزعماء مهما بلغ » . (١٨ برومير ، المقدمة ، ص ١٥) .

آن ، ورؤية القريب مـن وجهة نظر البعيد • ان التكيف الصحيح مع اللحظة الراهنة يفترض اعادة وضعها في السياق العام كلحظة تحمل المستقبل ديالكتيكيا ؛ ويفترض القدرة علـى التقاط المفصل أو نقطة ارتباط الهدف المقصود في الظرف الراهن • هذه الاستقبالية (النظرية ــ الحدسية) يمكن أن تولد انقلابا في المنظور ، لاول وهلة، ضمن التقدير الشائع للمخاطر التي نجابهها أو التـي لا نجابهها • تموز ١٩١٤ ، مثلا • من وجهة نظر استراتيجية (وجهة نظـر تجريدية طبعا : فالمصطلحات لم توضع بهذه الطريقة ، بل هي لم توضع أبدا ؛ وفي الغياب الكامل لكل مسألية نظرية حدثت آنذاك ، كـان المسؤولون عـن الاعمال مجروفين قاصرين ، ناسين أنهم آخذون في نسيان عشرات القرارات السلمية والمؤتمرات والتصريحات) ، وضعت أزمة اعلان الحرب الامية الاشتراكية أمام خيار اللاشرعية ، وقضايا الخيانة والانشقاقات الداخلية وسقوط المناضلين من جهة ، أو المحافظة على التنظيمات القائمة لكـن بشرط التجند للحرب الامبريالية ، والحلف المقدس ، والشوفينية ، الخ ، مـن جهة ثانية • ولو افترضنا أنه كان لقادة الامية أن يختاروا ، أنه كان لديهم متسع من الوقت للموازنة بـين عبارات الاختيار ، وافترضنا أن الازمة كانت مادة للتباحث والتقرير ، وأنه كان لديهم الوقت للاجتماع حول مائدة ، فانهم سيكونون موجودين في حالة اختيار بـين الحاضر

والمستقبل ، بين حساب الارباح والخسائر في المدى القصير والحساب نفسه ، معكوسا ، في المدى الطويل • ان ما يميز الانتهازية هو تشبثها بالارباح المباشرة ، واعتبار التكتيك استراتيجية ؛ وهذا مما يقودها الى أن تتجنب بأي ثمن أقنية الاختناق ، والمنعطفات المفاجئة ، وحتى الطرق المسدودة حيث يتوجب أحيانا الانخراط في كل ما هو مباشر اذا كان المقصود خلق شروط لمخرج ملائم ، في المدى الطويل • وقد بدا لينين والقريبون اليه ، في سيرهم ضد التيار ، أنهم يرتكبون ، في نظر جميع الاشتراكيين تقريبا ، عملا جنونيا ، وينفصلون عن الجماهير ويسقطون في نوع من المثالية برفضهم الاقرار بحالية الحرب وانخراط الامم الاوروبية في الحرب انخراطا شاملا • غير أن يسار زيمرفالد لم يكن يعارض فكرة بواقع ، فكرة التضامن البروليتاري أو السلام الذي يتم بالمفاوضة ، بواقع الحرب الامبريالية ، فقد كان يندمج تماما بالظرف لكن لكي يحوله الى نقطة انطلاق أو نقطة ارتكاز ، بغية الانطلاق الى ما وراءه ، نحو تحقيق « الفكرة » ، أو البرنامج الثوري • لم يكن يتخذ مكانه في معزل عن الحاضر الملموس ، شأن أولئك الذين كانوا يبشرون بالعودة الى « الوضع الراهن السابق » ، الى السلام وحدود ما قبل ١٩١٤ • لم يكن يحكم على الواقع باسم الفكرة ، فيدين الحاضر باسم مستقبل أسطوري ؛ شأن محبي السلام على غرار رولاند Rolland • كان يمفصل

المستقبل على الحاضر ، مضاعفا ، اذا صح القول ، رهانه : الطريقة الوحيدة للخلاص من مجازفات التدمير والابادة هي القبول بالمجازفة الاضافية المتمثلة بالحرب الاهلية : فالحل ليس من قبل بل من بعد • كانت الظروف القائمة تبطل أن تكون سلبا خالصا ، جامدا ، يائسا (الحرب الامبريالية كنهاية مطلقة للبرامج والمثل الاشتراكية) ، لكي تصبح ، وقد تجدد منظورها ، الثغرة المفتوحة التي كان ممكنا أن تدخل فيها ، في ظروف جديدة وأكثر مؤاتاة ، سياسة ثورية هجومية • كانت الجرأة اللينينية ترى بعيدا ، في « الظروف الحاضرة » ، لكن بواقعية • كانت تجعل القفزة ممكنة باستخدامها هذه الظروف كوسيلة ، بحيث أن القفزة تبدو كأنها تحول للمعلوم ، نفي ديالكتيكي معقول • مثلا : الشعار ، في هذا السياق ، يصبح : « تحول الحرب الامبريالية الى حرب مدنية ثورية » • غير أن هذا «التحول» لا يدين بشيء الى لامارك Lamarck • ليس لانه غير طبيعي ، يستخدم سلطة التقرير ، بل لانه ، اذا لاحظنا أحداث التاريخ ، **انتهاك** : قفزة الى الامام ، فيما وراء الممنوعات ومقاييس « الحياة العادية » ، وانفصام عن الماضي ، وصدع في الاستمرارية التاريخية ، وتغيير للخط القديم ، الخ • وفي هذا ، لا نجد أي أثر للآلية على يمين هذه الجرأة ، المحيرة ، الفورية والحازمة ، المليئة بـ « المنعطفات » ، بـ « المفاجآت » ، بـ « التعرجات » وفقا

لتغيرات الوضع • ولا نجد الى يسارها أي أثر للارادية أو الطوباوية لانها على وجه الدقة تندرج في الاوضاع القائمة ، وانها تستند الى الواقع الموضوعي الذي يعكسه التحليل عكسا صحيحا • هذا الواقع يستوجب وقائع طبيعية (الموقع الجغرافي للبلـد ، موارد الطاقة فيها ، تركيب تربتهـا ، ديموغرافيتها ، اتساعها ، الخ) • ووقائع تاريخية (ماض قومي ، تقليد ، عقلية ، الخ•) ، لا تشكل بالطبع فئتين من « العوامل » ، سلسلتين متميزتين من الاسباب ، بل تشكل ، بتحديد بعضها للبعض الآخر ، وتداخل بعضها في البعض الآخر ، كتلة الظروف المعطاة ، التي يصنع البشر التاريخ بدءا منها (نعم « البشر » ، فماركس لا يستخدم كلمـة أخرى) • بحيث أن السياسة الثورية تجد نفسها بانتظام تحت نيران تجيء من جوانب متعددة ترشقها بتهم الانتهازية والتجريبية ، الى يسارها ، وبالتطرفية والارادية الى يمينها• والخلاصة يجب الاتفاق على معنى كلمة « واقعية » • فقد اتهم لينين ، سنة ١٩١٤ ، بـ « اللاواقعية » • ان البحث في الاستعارات البصريـة والتجسيمية والنظر الـى القريب بالنسبة الى البعيد ، الخ ، لا يحل وحده المسألة • ان الحل هو في ما نعنيه بكلمة « الواقع » ، أي هو في تصور معين للعالم ، في فلسفة معينة • ان لكل من سياسي الحي والواقعي المهني « فلسفة » ، شأن السيد جوردان الـذي ينجح في أعماله دون أن يعلم • ان فلسفته ليست مع الاسف فلسفة

جيدة : انه محكوم بأن يكون الموضوع السلبي ، وليس المحرك للتغيرات التاريخية • لكن اذا كان « الواقع » سياقا خاضعا لبعض القوانين ، فمن الصواب أن نسبق ، أن نتقدم أن نتخطى المعلوم المعطى كواقع ، في لحظة معينة ، من أجل السيطرة على تغييره • اننا لا نكون « داخل » اللحظة الراهنة تماما الا بكوننا « أمامها »• لا أي « أمام » بالطبع ، فالتقدم نفسه يجب أن يقاس بالصفة المميزة الدقيقة لما يجب أن يتخطاه • انه « أمام » هذه اللحظة الراهنة بالذات ، لا أية لحظة أخرى ، والتي ليست في جوهرها الا الحركة التي يتجاوز بها نفسه في مستقبله • وذلك ما يمنح للتوقع السياسي وضعا خاصا : فالتوقع هو في الدرجة الاخيرة « رؤيا » صحيحة للحاضر الملموس • ان لينين ، في ما يتعلق بالتوقع ، يترك بعيدا وراءه رفقاءه في الحزب وعددا من قرنائه : الى يمينه ، بوخارين ، والى يساره غرامشي ، ذلك لانه كان على وجه التحديد ، يتخذ من « اللحظة الراهنة » محورا لعمله التطبيقي •

ان وحدة الاضداد تتيح فهم الترابط بين مظاهر التناقض ، في جميع مراحل تطوره • وفي التضاد الصريح ، والمفتوح ، يكتسب التحديد المتبادل للقوى المتصارعة أو لمظاهر التناقض ، أهمية حاسمة • فكل مظهر شرط لوجود الآخر ، وما يؤثر على الواحد يؤثر على الثاني • الصدمة تستدعي الصدمة المعاكسة ، والعمل يستدعي رد الفعل ،

وهكذا حتى يتـم القرار . ان ظرف « الازمة » المفتوحة يحدد اللحظة التي تكتشف فيهـا القوى الحاضرة العلاقة التي تصل فيما بينها وتعارض الواحدة بالاخرى والتي لا توجد الا ضمن هذه العلاقة بالذات ؛ وهي علاقة مقنعة في الزمان العادي ، محيّدة في تعايش ذي مظهر جامد ... هذا الاكتشاف المتبادل يكشف لكل من القوى الحاضرة هويتها الخاصة ، لانـه يكشف مقاومة القوة النقيضة وصفتهـا المعاكسة . آنذاك تتحدد كل منها بالنسبة الى الاخرى لان كلا منها تكتشف علاقتها بالاخرى . فالازمة توقظ ، من الناحيتين ، الوعي الطبقي ؛ وتؤكد على الملامح المميزة ، وتلقح الكفاح بدم جديد ، وتنمي حركة الانضمام الـى المنظمات الطبقية النقابيـة والسياسية ، وتوسـع انتشار الافكار والصحافة . وبقدر ما تنمو قوى الانفصال ، تقاوم القوى المتضامنة مع التوازن القديم وتتجدد ، والعكس صحيح . (هل كان ستالين على خطأ في اعتقاده أن صراع الطبقات سيحتدم ، بعـد أن تسيطر البروليتاريا علـى الدولة ؟ يبدو أن الجواب هو لا ، وهذا مـا تشير اليـه التجربة في بلدان مختلفة . الاخطاء والجرائم والشرور آتية من كونه لم يعرف أن يميز بـين مختلف نماذج التناقض ، ولا بـين الوسائل المتنوعة لحلها في مجابهتها مـع مناهج صحيحة : اذا رددنا على صدمة بصدمة أخرى ، فاننا نرد على الفكرة بفكرة ثانية ، وعلى الفرضية الخاطئة بمناقشة

هذه الفرضية ، وعلى اختلاف سياسي بوسائل سياسية ، لا بوسائل ادارية أو بوليسية • أضف الى ذلك أن الديالكتيك ليس مفتاحا عموميا : فلهذا « البَعد » حدود ، والصراع يغير في استمراره أشكاله ، والعلاقة بين القوى تتحول لصالح الطبقة الحاكمة ، الخ • الخلاصة أن ستالين ، الديالكتيكي الجيد على الورق ، انتهى في الممارسة — في أواخر حياته — الى الميتافيزيقا التأملية بواسطة النفي والقتل • والميتافيزيقا الحاكمة هي فيزيقياً خطرة على الذين تحكمهم) •

تمييز ضروري : الازمة والظرف الثوري

حذار ! اذا كان كل ظرف ثوري ظرف أزمة ، بالضرورة ، فليس كل ظرف أزمة ظرفا ثوريا • حتى لو حدثت المجابهة ، بعد انكشاف التناقض ، وحتى لو ظهرت سلطة الدولة كأنها داخلة في المجابهة ، فمن الممكن أن تكون الشروط الموضوعية غير متوفرة بشكل يسمح بأن يعزم حزب مع حظ يكفي للنجاح ، أو تنظيم طبقي ، على أن يقذف بوجوده في الميزان ، وأن يقفز ، لكي ينتزع القرار • كل شيء يتوقف على نسبة القوى ، أي على معرفة أية قوة ستعزل الاخرى ، وأية طبقة ستتحالف مع الطبقة الاخرى ، لكي تشكل ثقل **الاغلبية الفعالة** • من المؤكد أن قدرة البروليتاريا على التدخل في السياق الاقتصادي للانتاج ،

بفضل الاحزاب مثلا ، تمنحها أهمية نوعية لا علاقة لها بملاكها الكبير ، وبثقلها النسبي . لكن الى كم من الوقت وفي أية شروط سياسية ؟ ففي نهاية المطاف ، في بلد كفرنسا، تستتبع ممارسة السلطة السياسية ، في القاعدة ، دعم قوة تشكل الاكثرية قابلة للبقاء بعد زمن الازمة ، وهذه القوة لا يمكن أن تنشأ الا من تحالف مع الفلاحين الفقراء ومتوسطي الحال ، ومع قسم كبير من البورجوازية الصغيرة في المدن . هذا التحالف المادي هو وحده الذي يستطيع أن يمكن البروليتاريا الثورية من أن تراقب ممارسة السلطة، في المستوى الحاسم الذي هو المستوى السياسي . ليس في هذا شيء مما يثير الحماسة ، فمن الطبيعي اذن نسيانه في لحظة من الحماسة الربيعية[1] . ان الازمة لا تصنع الثورة بأكثر مما يصنع الرداء الكاهن . انما الازمة ، في شكلها العضوي ، هي مقدمتها الحتمية ، ونعني بالعضوية أنها تؤثر في مجموع الطبقات الاجتماعية في أمة ما ، (لا في طبقة واحدة أو اثنتين بل في الطبقات جميعا وفي آن) ، وتؤثر في مجموع علاقات السيطرة القائمة ، وفي سلطة الدولة ، أعلى أشكال هذه السيطرة تنظيما . يقول لينين : « القانون الاساسي للثورات ، الذي أكدته جميع الثورات وبخاصة

---

(١) يشير هنا الى ثورة أيار الفرنسية ، ١٩٦٨ .

الثورات الروسية الثلاث في القرن العشرين ، هو التالي : لا يكفي لحدوث الثورة أن تكون الجماهير المستغلة المضطهدة تدرك استحالة الحياة على غرار الماضي ، وتطالب بالتغير • فلا بد لكي تحدث الثورة من أن يكون المستغلون غير قادرين على أن يعيشوا ويحكموا شأنهم في الماضي • فالثورة مستحيلة بغير أزمة وطنية عامة » • وقد تأكد أن هذا المفهوم الاخير رئيسي قطعا وحاسم في الستراتيجية اللينينية للسيطرة على السلطة ، اذ أنه على أرض الازمة الوطنية العامة (وهي نفسها متعلقة بظرف أزمة عالمية ، متصلة بصراع عسكري دولي) ، لا أي مكان آخر ، في هذه اللحظة بالذات ، لا قبل ولا بعد ، لا قبل الاوان ولا بعده ، يمكن أن تنحل القضايا الخاطئة « للمجرى العادي » ، أو ، بشكل أدق ، يمكن أن تجد التناقضات التجريدية التي تعارض ، مثلا ، فكرة الاقلية الفعالة بفكرة الاكثرية الانتخابية ، وكلتاهما ضئيلة الصلة باللينينية حلها العملي • ان الجماهير المستغلة المقموعة لا تستطيع أن تنضم بطريقة عملية ، عفوية ، متسارعة ، الى الحزب أو الى التنظيم الاولي اللذين يظهران أنهما متماسكان في الدفاع عن مصالحها الطبقية ، الا داخل سياق تطوري حاسم من التصاعد المتطرف ، حين ترى اطار «حياتها العادية » يتهدم بسرعة ، وأوهامها الايديولوجية تتبدد ، وممثليها الشرعيين ينهارون عاجزين عن مجابهة الوضع الناشىء والسيطرة عليه : في ثلاثة أشهر، من تموز الى أيلول

١٩١٧ ، ازدادت حظوة البلاشفة بمقدار عشرة أضعاف تماما، كما تؤكد ذلك انتخابات الدوما البلدية في موسكو ، التي كانت بمثابة اختيار بالنسبة الى قادة الحزب قبل أن يقرروا القيام بالثورة • ومن جهة ثانية ، فان مسألة التحالفات التي تقيمها البروليتاريا أو الطبقة الطليعية ، وهي مسألة جوهرية قطعـــا (جوهرية لان طبقة الطليعة الاقلية تصبح أكثرية حقيقية في اقامة التحالف الطبقي الجديد) ، يمكن أن تجد على أرض الازمة الوطنية العامة حلا ملائما بقدر ما تنجح الطليعة في برهنتها عـــن أنهـــا تمثل حقا مـــا سماه انجيلز « الطبقة الوطنية » ، الوحيدة التـــي تتمكن سيطرتها في المستقبل من أن تتكفل بالدفاع عن المصالح القومية : في الصين ، يسجل منعطف ١٩٣٧ ، منعطف « الجبهة الموحدة ضد اليابان » بداية المرحلة التي أصبح واضحا للجماهير الصينية انطلاقا منها أن صيانة الاستقلال القومي مرتبطة عضويا بانتصار الحزب الشيوعي وجيش التحرير الشعبي ، وليس صدفة أن يقدر الحزب الصيني الذي تراجع في ينان أن يزيد فجأة عدد أعضائه بمقدار عشرة أضعاف ما كانوا عليه ، ويوسع المناطق المحررة ويتوطد هو نفسه كحزب ويحقق في الوقت نفسه في حمى الحرب سياسة التحالف مع « الطبقات الاربع » كفاتحة **للديموقراطية الجديدة** •

استطراد حول مسالة التحالفات

ان كتابات ماو زاخرة بالارشادات حول هذه المسألة

الرئيسية ، ومما يدعو للاستغراب أن معظم تلامذته الاوروبيين لم يفيدوا منها • يلاحظ باختصار ، في اطار الثنائية المقولية ، على المستوى الاستراتيجي (ثورة/ثورة مضادة ، اشتراكية/امبريالية ، شرق/غرب) الذي يسمح بتوقيت « المنعطفات » ، وتحديد الانقلابات في علاقة القوة (مثلا : الوضع الراهن ومهماتنا ، ١ ، ١٩٤٧) ورسم الخطوط الفاصلة السياسية والايديولوجية (أصدقاء/أعداء) أن هناك مكانا لتعددية مرهفة جدا ، ظرفية ، في التمييز بين الفئات والطبقات الاجتماعية ، في المستوى التكتيكي • تميز في تحليل الطبقات الريفية أربع طبقات أساسية ، ويميز داخل الاولى ، أي طبقة الفلاحين الاغنياء ، بين الطراز القديم من الفلاحين والطراز الجديد ، الخ • وفي المدن تميز ثلاث طبقات : البورجوازية الكومبرادورية الاحتكارية ، البورجوازية الوطنية ، البورجوازية الصغيرة • هذا يسمح بتحديد سياسة التحالفات لكل مرحلة ، وفقا للاهداف المقصودة • والعلامة اليقينية على صحة خط ما ، هي تحديد التحالفات الملائمة • لقد نفرت الفلاحين المتوسطين أخطاء اليسرويين في ١٩٣١ — ١٩٣٤ • وفي فترة التحالف مع الكيومنتانغ ، نقص عدد الحلفاء الممكنين : لا اصلاح زراعي ، والاكتفاء بتخفيض معدلات الفائدة وايجار الارض ، الخ • مرحلة « الديموقراطية الجديدة » : الطبقات الاربع ، الخ •

هناك ، بتعبير آخر ، عدة « طبقات » متميزة داخل كل طبقة رئيسية في المجتمع الصيني ، وكل مرحلة سياسية تستخدم التحالفات بين القوى المتميزة . لكن الجوهري هو أننا نجد في القاعدة ، لا التواتر والمنطق الثنائي ، بل **الثلاثي** . وكل وضع ، كل ظرف تاريخي يجب أن يفهم ، في آن لكن بتميز ، بالاستناد الى العدد ٢ ، والعدد ٣ ، العدد الاستراتيجي ٢ ، والعدد التكتيكي ٣ . هنا على وجه التحديد خطأ اليسروية Gauchisme الاساسي : العدد الاول يحجب عنها العدد الثاني . فلا يوجد في نظرها الا معسكران ، الا الصراع بين جوهرين : العمل/الرأسمال ، وبين طبقتين : البورجوازية/البروليتاريا ، ولا شيء بينهما . صحيح لا يوجد الا معسكران ، لكن هناك ثلاث قوى ، ولكي ينتصر معسكر الثورة لا بد من توسيعه لكي تدخل فيه القوى ــ المحاور ، **مفصل الانتصار أو الهزيمة** : طبقة الفلاحين ، أو البورجوازية الصغيرة ، أو الطبقتان معا . ان اليسروية ــ الثنائية المانوية ــ لا يمكن أن تنجح في سياسة التحالفات . والحال أن جوهر الخطوط الصحيحة هو : « تنمية القوى التقدمية ، ربح القوى الوسيطة ، وعزل القوى المتطرفة » (الوضع الراهن ومهماتنا) .

وعلى هذا فان عزل العدو وربح القوى الوسيطة لا يشكلان الا عملية واحدة ، ما دامت تعني حرمانه من حلفائه الممكنين . والعبارات الثلاث انما هي عبارة واحدة ،

باعتبار أن القوى الوسيطة اذا لم نربحها نحن يربحها العدو الذي يصبح أكثرية ويجرد القوى التقدمية من وسائل نموها • أو ، كذلك ، كما يوضح هذا التقييم للجماهير بعامة : « تنقسم الجماهير الى أقلية فعالة ، وأكثرية مترددة ، وأقلية سلبية • وينبغي أن ننمي الفئة الاولى لكي نجتذب الفئة الثانية ونحيّد الثالثة » •

بهذا المعنى ، يبدو دائما صراع الطبقات على المستوى السياسي كمبارزة ذات ثلاثة أطراف ، مبارزة بين عدوين من أجل ربح الثالث ، وفي أثناء ذلك ، عزل الخصم •

ان تاريخ الثورات الفرنسية ، بنجاحاتها واخفاقاتها ، من سنة ١٧٨٩ الى أيار ١٩٦٨ ، يمكن ويجب أن يكتب ، على نحو تبسيطي ، من هذه الزاوية • فالمقصود هو التحقق كل مرة من هوية القوى الوسيطة التي هي موضوع الاستخدام والجدل ، والتي يتوقف على الدعم الذي تقدمه أو خسارته نصر الحركة أو فشلها • في سنة ١٧٨٩ ، فلاحو **الخوف** الكبير : ايجاب • في سنة ١٨٤٨ ، تنفير الفلاحين منذ البداية ، بضريبة الـ ٤٥ سنتيما (غارنييه ــ باجيز Garnier-Pagès) : سلب ، الخ • حتى أيار ١٩٦٨ ، تبلور انهيار « الطبقات المتوسطة » المدينية ، بخطاب ٣٠ أيار •

لكن أيا كانت « الازمة الوطنية العامة » ، ومهما بدت قدرتها على الخلخلة ، فهي لا تجمع بالضرورة الشروط التي تسمح بمنفذ ثوري ظافر • « كل شيء يتوقف على

الشروط ، على الظروف » ، كما تقول كلمة لينين ، ولا نستطيع هنا أن ندخل في دراسة شروط أزمة أيار وظروفها .
ان ما يميز ظرف الازمة عن الظرف الثوري هو أنه ، في الاول ، تستطيع الطبقة الحاكمة أن تجد دائما حلولا احتياطية للمحافظة على الوضع القائم ، وطريقا متوسطا أو بسيطا يتجنب المنعطف المفاجىء ، أو تستطيع أن تنعطف هي نفسها ان كان ذلك محتما بغية الاحتفاظ بالمراقبة ، وباختصار يمكنها أن تجتنب ببعض الحيل البديل الحاسم ، في حين أن الظرف الثوري لا يمكن أن يعتبر حلا ، أي حل قائم على التسوية ، أو أي تغيير سطحي في التوازن ، فالحل هو اما انتصار أحد المعسكرين المتصارعين انتصارا كاملا ، واما هزيمته هزيمة كاملة .

« لم نعقد ميثاقا بالنصر بل بالكفاح »

ليس الظرف الثوري ظرفا تكون فيه الثورة ناضجة كالثمرة ، يكفي أن تهز الغصن ، وتلامسها لكي تسقط في يدك ، وانما هو ظرف لم يعد قابلا لكي يحيَّد ، ولم يعد ممكنا فيه الافلات من الاختيار : الثورة أو الثورة المضادة ، حين لا تعود الطبقة أو الطبقات الحاكمة قادرة أن ترجع الى التوازن القديم الذي كان يجعل أكثرية المقموعين ينسون قمعها أي يقبلون به . فلا بد للطبقة المسيطرة من أن تسيطر علانية ، دون مسكنات ودون مخاتلة ، أو يسيطر عليها علانية . انه ظرف لا يقبل ابهاما ولا تسوية : ومن هنا

انشقاق المعسكرات • واذ يتقرر المنعطف ، تتجه يسارا أو تتجه يمينا ، ومن المستحيل الاستمرار على امتداد الطريق القديمة• ان لم يكن لينين فكورنيلوف Kornilov ، لكن في أية حال لم يعد ممكنا ان يكون كيرينسكي ، فكيرينسكي = كورنيلوف،ومن هنا يجب ان تكون الازمة حاسمة في هذا الاتجاه أو ذاك ، بعد أيام تموز وانقلاب كورنيلوف الذي فشل وقتيا • ودفعت الازمة في بضعة شهور مركز الثقل في حكومة كيرينسكي نحو الثورة المضادة الملكية والدكتاتورية • لم يعد ثمة موقف متوسط • ان الديناميكية التي يتميز بها كل ظرف ثوري تجعل الطرف الثالث ينضم الى الطرف الاول او الثاني ، فيصبح الصراع فورا صراعا استراتيجيا ، لانه اتخذ الشكل المتطرف من الخيار • يمكن لظرف أن يسمى ثوريا ، لا لان الثورة فيه محتمة ـ فهي غير محتمة ، ولن تكون محتمة ، ولم تكن محتمة في أية لحظة من لحظات التاريخ ـ بل منذ أن يتضح فيه أن من المحتم اذا لم تحدث ثورة اليوم فستكون غدا ثورة مضادة ، والعكس صحيح ، دكتاتورية شعبية أو دكتاتورية عسكرية ، اشتراكية أو فاشية ، تحرر أو عبودية : ايطاليا ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣ ، ألمانيا ويمار ، سانت دومنغ ١٩٦٥ ، بوليفيا ١٩٦٤ ، فيتنام ، أندونيسيا ، الخ • ان بين هذه الظروف التاريخية والمحلية ، التي لا يمكن بالطبع اختزال بعضها في البعض الآخر قاسما مشتركا ،

أمس واليوم ، ليس الثورة الحتمية بل الخيار الحتمي بين سياق ثورة وسياق ثورة مضادة ، سياق استقلال وسياق تبعية • ولا تستطيع عفوية الحركة التاريخية أن تفعل أكثر مــن بلوغ المفارق الحاسمة حيث تصبح الكلمــة الاخيرة « للسياسة » (للكفاح بعامــة : السياسي ، العسكري ، الايديولوجي ، أي لاتجاه هذا الكفاح) • لا توجد اذن عفوية ثورية ، اذ ستكون ثمة دائما ، الآن أو غدا ، لكن بشكل لا مفر منه ، أزمة عامة « تحسم » •

من المفيد بهذا المعنى ألا ننسى أن الظرف الثوري يمكن ويجب أن يعتبر كذلك ظرف ثورة مضادة ، في نظر هؤلاء الذين يريدون أن يسيطروا على نتائجه • ونتيجة النمو الديالكتيكي للاشياء هي : بقدر مــا تقترب طبقة مضطهدة من سلطة الدولة ، تصبح السلطة صعبة المأخذ على ممثليها • ففي نسق الممارسة ــ التكتيك يتوجب على القيادة الواعية أن تتصرف كــأن النصر يصبح أبعد منالا كلمــا اقتربت منه • لا نستطيع مثــلا أن نجمع في جبهة موحدة الجماهير الشعبية المهتمة بتغيــير شروط حياتها ، دون أن نسبب في القطب الآخر تجمع القوى الرجعية ، الاسرع غالبا والافضل سلاحا ، باعتبارها تمتلك آلية الدولة ؛ فليس من المعقول تصور الواحد دون الآخر ، أو تقدير الفعل في معزل عن رد الفعل • هذا مبتذل ، لكنه ينسى • من هنا هــذه الاوهام وخيبات الامل :

ـ المفاجأة ، الفوضى ، المرارة ازاء انقلاب الظرف ، وتغيرات الوضع « الجائرة » ، « اللامنطقية » ، « المبهمة » ، فما لا يفهم يجد بالطبع تفسيره في سلوك « الخونة » ، « المرتشين » ، « العاجزين » ، الخ . مثال : « لم نكن قط مرة بمثل هذه الكثرة في الشارع ، ولم يكن الحشد مرة بمثل هذا الاتساع ؛ عشرة ملايين من المضربين ، الثوريين ، البلشفيين ، الجاهزين ، بكلمة ، لكل شيء ... طق ! بين عشية وضحاها ، ينفس البالون ، ويغيب الجميع ، ويملأ الخصم الساحة ... » ولننظر الى الصحف . بصورة أكثر جدية : انفاشية في ايطاليا والمانيا نمت متوازية مع نمو الاشتراكية فيهما . ان تعاقب اشارة الجمع (+) لا يضمن أن تكون النتيجة ايجابية . (+ س) . (ـ ع)، حتى مع ع ـ س = ـ د . السياسة جبر لا حساب . والازمة تسير كعملية جبرية .

ـ الرفض العنيف والتنهدات الحزينة التي تصدر عن الاصلاحيين ازاء كل اتجاه متطرف ؛ فهؤلاء السادة يعتقدون في الواقع أن التناقضات لا تنحل ، بالهياج والتنبه ، بل بالتهافت الهادىء ، والانطفاء بوداعة . انهم يخلطون بين حل التناقض وانحلاله بذاته . هذا الاستدلال الجدلي الزائف هو الذي يدعم تأملات من هذا النوع (تأملات مخجلة ، لا تعترف بهذا أبدا بشكل كامل ، لكنه يقرأ بين السطور) : « الاضطرابات في المجابر Ghettos الاميركية

ستؤدي الـى انتخاب نيكسون ، والـى اعطاء أصوات لوالاس . لـو أن السود أكثر حكمة ، ولـو أن الطلاب المتطرفين أكثر ذكاء ، لكان باستطاعتهم الحصول على رئيس ديموقراطي مهذب، شجاع ، جذاب جدا » . كانت تلك هي الحجة الاساسية في الكفاح المزعوم من أجل السلام ، في مرحلـة الاوهام الكبيرة للحركة العماليـة الدوليـة (١٩٥٨ ــ ١٩٦٥) ــ « انتصارات » فضائية ، الشيوعية بعد عشرين سنة ، بورجوازيات وطنية ، ديموقراطيون من طراز جديد ، سوكارنو ، نكروما الخ ، وباسم هذه الحجة طلب الى الفيتناميين أن يخففوا المقاومة ، لانها اذا استمرت، ستضر بالسلام العالمي . كان ذلك يكتب تقريبا كما يلي : « هذه البؤر الخطيرة مـن التوتر الدولي التي لا تعرض السلام للخطر وحسب ، بل انها كذلك لا تشارك بشيء في تحسين مصير الشعوب ، تستخدمها على العكس الامبريالية كذريعة للتدخل ... » ، الخ .

ثمة عنصران يجب التمييز بينهما في هذا النوع مـن ردود الافعال الشائعة كثيرا . الاول صحيح جدا : هاجس الاحتراس من التحديات ، مـن الاعمال المغامرة السابقة لاوانها التي يمكن ان تعرض المستقبل للخطر ، لان زمن تطـور التناقضات الطبقية ، القوميـة أو الدولية ، ليس « الاستبطان الجمعي » intériorisation Cumulative لعناصر الانفصام ، وانما هـو شبكة مرهفة مـن العقد

الاستراتيجية تتقاطع كل منها مع الاخرى • لا نقدر أن نحرض اصطناعيا أو نرتجل أو نعجل ظروف الازمة ، لكل بلد ، لكل تاريخ محلي زمنه الخاص ، ايقاعه ، سرعة تطوره • من المؤسف أن هذا العنصر مموه بالتطورية المبتذلة أو مستخدم ذريعة لها : فالبعض يتخيلون تقدما هو بقوة الاشياء ، وبشكل طبيعي « تقدمي » ، مستمر ، منتظم جمعي ، متناغم ، دون اوجاع في الرأس ، وسوف يكتمل في اللحظة المناسبة ، اكراما ! « قانون » الكمية/النوعية ، تاركا في مجرى طريقه حثالات الوضع القديم للاشياء • يتجلى هذا المفهوم من بين السطور في التعليقات ، ويستمد حججه من الفشل الثوري العابر ، كما لو أن الطريق الذي يقود الى النجاح لم يكن تاريخيا مغطى بالتضحيات والهزائم • تجريديا ، يمكن أن تسمى تحديا كل مبادرة للانفصال عن الوضع الامبريالي القائم ، ومن المؤكد أنها ستسبب ردة فعل من العدو • ان تحليل الشروط المحلية ، المحددة هو وحده الذي يسمح بان ندعي او ان لا ندعي ان « التحدي » ايجابي ، ملائم ، تقدمي أو أنه ، على العكس ، غير مجد وفي غير وقته • من المسلم به أن الاصلاحيين لا يجازفون بأي شيء ذي بال • وهم يعرفون جيدا أن المبادرة الثورية ، منظورا اليها من الخارج ، تتعرض وقتيا للفشل • يمكنهم اذن أن يستنكروها مسبقا ، أن يحكوا أنوفهم أو يستيرون خملة الصمت الخبير • يعرف الجميع أن النجاح ،

في تاريخ الثورات لم يكن القاعدة ، بل الاستثناء . لكن يكفي استثناء واحـد لقلب عصر بكامله واعادة تكوين التاريخ ؛ تكفي حلقة تسقط في أحد أطراف العالم ، لكي تهتز السلسلة كلها حتى الطرف الآخر . (ولهذا فان ما قد يحدث غـدا في ماكوندو بأميركا اللاتينية ، رغم الاهمية الضئيلة لماكوندو حين تقارن بباريس أو طوكيو ، سيغير بطريقة غير متوقعة طبيعة ما يحدث في باريس وطوكيو) .

التجريدان ، أو الأخوة الأعداء

الميتافيزيقا على أرض التاريخ : جذر واحد ، لكـن وجهان . الجذر : النظر الى القوى في ذاتها ، باستقلال عن علاقتها . وهذه العلاقة هي التي تكون الجانب الملموس في كـل ظرف ؛ وتحدد تحولات هذه العلاقة الانتقال مـن « لحظة راهنة » الى لحظة راهنة أخرى . « اللحظة الراهنة » عبـارة سياسية ، اذ ان في مستوى الالحـاح السياسـي لتنظيـم مـا اقتصـادي ـ اجتماعـي ، انمـا تدخـل القوى المتعارضة في علاقات متبادلة دخولا كاملا ، ويتمرس « العمل المنسق للقوى الاجتماعية » (لينين) . اذن ، في المستوى السياسي ، يتماسك التنظيم الاجتماعي ، ونتيجة هـذا التماسك هي اللحظة الراهنة التي تشكل الموضوع المحدد لكل عمـل سياسي فعال . وفي ظرف الازمة ، تنزع اللحظة الراهنة ، الـى الاقتراب مـن تحديدها في علـم الميكانيك : « لحظة قوة مزدوجة » . اذن ، من الضروري

آنذاك ، أكثر من أي وقت مضى ، تفحص تتاج الاثنتين ، الاثنتين في تتاجهما وعبره ، أعني أنه لا يجوز السقوط في التجريد الاحادي الجانب • ان مواجهة وضع بجميع مظاهره هي ان تتفحص ترابط هذه المظاهر ، وان ندرك وحدة الوضع كوحدة ــ نتيجة ، وحدة ــ حصيلة ، أي هي أن ندرسه ديالكتيكيا • هناك شكلان للتهرب من المهمة الديالكتيكية ، هما بوابتا الدخول الى الميتافيزيقا ، الشكل اليمنوي Droitiere والشكل اليسروي Gauchiste •

أشار ماركس في **البيان** الى الشكل الاول : « يريد الاشتراكيون البورجوازيون شروط الحياة في المجتمع الحديث ، دون الكفاحات والاخطار التي تنتج عنها بالضرورة • يريدون المجتمع الراهن ، لكن بعد تطهيره من العناصر التي تفككه وتثوره • انهم يريدون البورجوازية بدون البروليتاريا » • وقد تكفل لينين بمقاومة الشكل الثاني ، الذي هو شكل آخر للاشتراكية الميتافيزيقية سماه « اليسروية » (Gauchisme) • يريد اليسرويون هم كذلك شروط الحياة في المجتمع الحديث دون التحالفات والاستقرار النسبي التي تصدر عنها بالضرورة • انهم يريدون المجتمع الراهن ، لكن بعد تنقيته من العناصر التي تحافظ عليه وتحاول أن تجدد وحدته • يريدون البروليتاريا بدون البورجوازية • (واقعيا ، في شهر أيار ، يريدون المسيرات باستيل ــ ريبوبليك ، لكنهم يغلقون عيونهم امام

مسيرات كونكورد ــ آرك دو تريومف) • انهم لا يدركون تعارض الاضداد وتضامنهم ، يحرمون أنفسهم من وسائل التأثير على الواقع التي يخفونها في الفكر •

ان التجريد اليساروي هو ظل التجريد الانتهازي (اليميني) ، مقلوبا • وهذه المناقشات الباطلة تشكل مآسي تاريخية حقيقية، لانها تنمو نموا حقيقيا على أرض الكفاحات الفعلية اليوم وفي أوروبا ، مثلا • هذان التجريدان يولد كل منهما الآخر ، ويسوغ كل منها الآخر ؛ وقد تكون هذه الحلقة المفرغة نتيجة موضوعية للديالكتيك « في الأشياء كما هي » • يمكن تعداد المناقشات الباطلة التي تجعل من أوروبا ، الرأسمالية والاشتراكية ، الغربية والشرقية ، تربة زاخرة بالزوائد الفطرية العقيمة ــ بدءا من المناقشة التي تعارض أوروبا الاولى بأوروبا الثانية ، وتوحد بينهما ، بشكليهما الراهنين • (على الصعيد النظري ، مثلا ، المناقشة حول النزعة الانسانية الانتقائية ، والعلموية Scientisme المتشددة ، الخياطة والتفصيل ، انما هي انحراف لا يقدر أن يتقوم أولا الا في انحراف بتأثير مناقض • المسألة اذاك ليست أن تنتقد تجريديا العبارات الماثلة ، بل أن نفهم الشروط التاريخية ــ وفي هذه الحالة معطيات التاريخ النظري ، وليس وحدها فحسب ، اذ ينعكس فيها ، في التحليل الاخير تاريخ وصراع الطبقات الاوروبية منذ الحرب ــ التي جعلت من هذه الاختيارات الزائفة الافق

الملموس ، الضروري ، الذي لا مفر منه انتقاليا ، للتطور الديالكتيكي للديالكتيك المادي ، الخاضع هو كذلك لقوانين صراع الاضداد ، لتفاوت التطور ، وتغير الاتجاهات لصالح ظروف الازمة ، الخ .) .

هذان تجريدان كل منهما يغذي الآخر . انهما يقدمان، من حيث هما اتجاهان أو « بنيتان للوعي الايديولوجي » ، أيا كان شكلهما السياسي أو خصائصها الظرفية ، معارضة بلاغية ، تتكرر باستمرار ، ولا حياة فيها . يمكن حينذاك أن نقدم ، أمانة للشيء الموصوف ، وصفا تجريديا ، بابرازنا الملامح الجوهرية . الاتجاه الاول يغض النظر عن الشروط المحددة موضوعيا ، والثاني يغض النظر عن الحركة التي تخرق هذه الشروط ، لكن ليس ثمة « أول » ولا « ثان » فالترتيب حيادي أو قابل للاستبدال اذ أن كلا منهما هو ردة الفعل العفوية ضد نقيضه .

يكون الخط السياسي ثوريا حين يمتلك وسائل خرق « الشروط المحددة سابقا » ، مرتكزا **عليها انطلاقا** منها ، لكن بغية الوصول الى هدف ليس متضمنا فيها ، ليس قطعا متضمنا فيها كليا ، هدف كامن فيما يتعداها . هذا العمل المتناقض هو الذي يصنع وحدة مظهره النظري ومظهره العملي ، وهذا تناقض شكلي ينحل في الفعل لكنه لا يقبل حلا نهائيا ،ثابتا الى الابد ، ذلك انه لا ينحل الا لكي يطرح نفسه بشكل آخر ، غير متوقع ، فحله لا يمكن

ان يكون الا حركة نقدية للغير وللذات ترصد الحزب الثوري من داخل وعلى الجوانب : كيف يندرج في أجهزة المجتمع الرأسمالي دون ان يسمح لهـا بامتصاصه ؟ كيف يكون في الداخل والخارج معا ، حاضرا ومتجاوزا ؟ كيف يصير حزبا جماهيريا دون أن يتوقف عن لعب دوره الطليعي ؟ كيف يتوصل الى أن يدافع عن الديموقراطية البورجوازية ضدها هـي ، وان يقـاوم ، في الصراع الايديـولوجي والسياسي اليومـي ، الممارسة البورجوازيـة بمبادئهـا الديموقراطية ـ الليبرالية الخاصة ، فيما يتجاوز ، هـذه المبادىء نفسها ، أي اذن فيما ينكرها ، من زاوية ما ؟ كيف ينخرط كليا في الكفاح الاقتصادي المطالب دون أن يسقط في شرك النقابية المحايدة Trade-Unionisme ؟ لقد أدركت روزا لوكسمبورغ ادراكا كاملا هذه الصعوبة ، والغريب أنها أخفقت في أن تراها بمظهر الكارثة الذي بدت فيـه ، سنة ١٩١٤ مظهـر الواقع القومي في علاقته الغامضة مـع الاممية البروليتارية ، علـى الرغم مـن عبارات جوريس Jaurès المطمئنة المشهورة المبهمة . تلـك هـي أشكال التناقض المتزامنة ، في لحظة محددة . واذ يتطور التناقض في الزمن ، خلال مرحلة من الفاعلية التاريخية ، ينحل عمليا في حركة التنقل بين لحظة الانفصام ولحظة الالتحام المتجدد ـ داخل الحزب ، والمجتمع بكاملـه ، والتاريخ القومي . يمكن التناقض ، مثلا ، من هذه الناحية ، أن يتوضح بهذا

الشكل ، شكل « الكيفية » الغامض باستمرار ــ كيفية حل التناقض : كيف نندمج في الاستمرارية القومية (التاريخية ، العاطفية) لكي نسبب الانفصال الثوري ــ في مرحلة كفاح من أجل السلطة ؟ بعد ذلك تصبح القضية : كيف ، انطلاقا من الانقطاع ، من تفكيك الوحدة القديمة ، نعقد من جديد خيوط الاستمرارية القومية (رفض «الثقافة البروليتارية» ، Proletkult ، استعادة قيم الماضي الوطنية ، نشر الثقافة واللغة التاريخيتين ، الخ .) ؟

ان اليسروية بأشكالها المتنوعة ، البروليتارية والطلابية ، في المراحل المختلفة حيث كان عليها أن تجيء وتفرض نفسها كعقاب (كفارة ؟) لخطيئة الانتهازية ، تنزع الى تمجيد الهدف الذي تلاحقه وتمجيد الانقطاع ، على حساب التأصل في القاعدة وحساب الجماهير والايديولوجية الشعبية،والتاريخ القومي.هذه النقطة الاخيرة بالغة الاهمية ان الانتفاضة التي تتخلص بها فئة من المناضلين من التدبقات التاريخية للانتهازية هي حتما مطالبة ارادية تتعارض مع الادارة المستسلمة لمجرى الاشياء ، ولجوء الى قوى « العمل » الذاتية . من هنا تميل الى ان تقفز فوق زمن التكونات ، وأن تمنح نفسها حافزا لا ماضي له ، ذلك ان الماضي هو ما لن يتغير .والحال ان الجماهير ،ان الشعب الا اذا اعتبرنا هاتين الكلمتين الوحدة الاساسية لمقالة ميتافيزيقية او بلاغية ــ لا يظهران في التاريخ الواقعي الا

ضمن خلقات التقاليد القومية • الامة ذاتها ، هذا المتحد من اللغة والارض والتكون النفسي (لكي نستعيد التحديد الادنى لكن الصحيح الذي قدمه ستالين) ، تكون الشكل الصريح الحسي للتراث ، من حيث هو انتقال دائم من الماضي الى الحاضر ، من حيث هو علاقتهما المشتركة • ان الشكل القومي للوجود التاريخي يعني حضور الماضي، او كذلك حضور الطبيعة (المحددة سابقا) في التاريخ (الذي سيصنع) ، وشروط ولادة تشكل اجتماعي في تطوره اللاحق • أن كون العمل السياسي ، والاممية البروليتارية نفسها لا يستطيعان ان يفعلا الا في اطار تشكلات القومية المحدودة المثقلة بالحدود من كل نوع ، جغرافية وتاريخية وعقلية ودينية ولغوية ، الخ •• يعيدنا باستمرار الى هذه الحقيقة الديالكتيكية المرة ، المرة على طوباويات الارادة ، والتي لا صلة لنا اطلاقا ، وفقا لها الا بتاريخ طبيعي مثلما نحن دائما امام طبيعة تاريخية • والحال ان « الطبيعة » ليست وحسب ما تترك للارادة ان تحدده ، بل انها كذلك ما يحدد الارادة • اذ نقبل بهذا المعنى ، نجد ان لما نجمعه ضمن قوس «اليسروية» (بخفة غالبا) ، قاسما مشتركا هو التمجيد الاحادي الجانب للعنصر الارادي ، فأن من جوهر هذا الاتجاه ان تكون ذاكرته قصيرة (ذاكرة فردية او ذاكرة سياسية) ذلك ان الماضي ، بالنسبة الينا يخص « الطبيعة » • لكن

ينبغي تماما ان نرى ما في هذا النوع من فقدان الذاكرة من السوي الصحي والملائم . انه يكون ردود الفعل الدفاعية الغريزية تقريبا ، العفوية (رغم انه لا بد من تجاوزه وتعديه فيما بعد الا اذا تحول بدوره الى مرض جديد) ، للشباب ضد الشيخوخة ، لسير الحياة ضد التحجر الانتهازي للاجهزة القائمة وحرس المتاحف والمحفوظات الثورية . ضد هؤلاء الذين تقسرهم الذاكرة و « التجربة » على الشلل والتكرار ، الذين يحترسون حتى من ارتجال خطبهم المنسوجة من الاستشهادات والتكرار والثرثرة ، الذين يمضون حياتهم يحتفلون بذكرى الاموات الكبار ، اعذارهم التي يختبئون وراءها . لا توجد سياسة ثورية غير مستندة الى تراث ، تراث طبقة وتراث امة ، في وحدة لا تنفصم ، وبهذا المعنى لا يشعر الشيوعي الحق انه متضايق من كونه تراثيا : انه بالضبط ، عامل التراث والمسؤول ، في الحاضر عن المصالح التاريخية لبلاده وطبقته . ان على الثوري ان يعرف معرفة كلية التاريخ الاقدم لشعبه ، والتاريخ الاقدم كذلك للانسانية كلها . لا يتوجب على الثوري الفرنسي ان يعرف سنة ٨٩ وحدها بل عليه ان يعرف تاريخ الحروب الصليبية وكلوفيس Clovis كذلك الفيتنامي عليه ان يعرف الكفاح الكبير ضد المغول . غير ان التراث ، بالنسبة الى أي ثوري ، هو بحد ذاته نشاط عملي يجب ادخاله في

مهمات الحاضر • لا يمكن ان ينكفيء على نفسه ويتحول الى عبء ميت او طقس ماضوي فتنقطع بذلك العلاقة ويتوقف الجريان المحيي للماضي في الحاضر • ان مفهومنا للتراث يفتح سبيلا للمجازفة بالتراثات وحتى لنقضها ، كما ان مفهومنا للامة يوصلنا الى الاممية • فنحن انما ننطلق من التراث ، لكن لكي نتعداه ، وفي هذا ليست امميتنا تجريدية ، وانما ترتكز على واقع الامة المادي ، وهي تحتويه وتضطلع به بدل ان تغض نظرها عنه •

اليسروية تقرر « الانقطاع » ، دون ان تعرف لماذا، في الفراغ ، في كل مكان ، في لا مكان ويلجأ الانقطاع الثوري الى ان يفرض نفسه كمطلق غير مشروط : حيث كلمة السر حض على الوعي ، وحيث العمل التنظيمي يترك مكانه للواجب الاخلاقي • والرفض هنا ، غير المتميز، ينطبق على كل شيء ، دون تمييز ويبقى واحدا وان تعددت البلدان والظروف والاوضاع الاجتماعية •

الانتهازية اليمينية ترفض رفضا غير محدود لحظة الانقطاع ، وتدعي حتما لا أوانيتها inopportunité وتجعل من بشائرها سخرة او تنبذها • انها تجعل الحقوق المقررة للاستمرار وللتراث (الذي يتخذ بخاصة اشكال الوفاء لبرنامج المؤتمرات السابقة او قراراتها ، وذلك ضمن اطار وضع متجاوز على سبيل الاحتمال) مقابل المطالبة الشاملة بالانقطاع ، بالقفز ، فيما وراء ما تقرر اكتسابه ،

حيث يغامر « الكل من اجل الكل » (لامد قصير ، على الاقل) • ان اندماجها في واقع العالم البورجوازي يجري بحيث انها بدلا من ان تستند الى هذا العالم الموجود فعليا بغية تعجيل انحلاله ، فأن هذا العالم هو نفسه الـذي يستند اليها لكي يستمر في البقـا ء، اذ بفضـل هـذه « المعارضة » التي تنتزع منه اصلاحات دورية ، يتمكـن هذا العالم من ان يتغير فيما يبقى هو هو ، وان يتقلب دون ان يقلب• حتى الازمات نفسها اذ تصيب المجتمع البورجوازي تنتهي بأن تصبح بالنسبة الى الطبقة السائدة عوامل توازن متجدد •

استطراد ايديولوجي بصدد التروتسكية
(كبنية للوعي الشقي)

بما اننا نخوض في الميتافيزيقا ، فلنبق فيها بصحبة اكثر الفلسفات الميتافيزيقية الثورية اثارة للعواطف ، والتي خرجت مسلحة تماما من الجمجمة التـي حطمتهـا بدناءة ضربات المعول ، جمجمة تروتسكي ، الرجل الطيب الساحر، افضل من كتب عن الاشتراكية ، بعد ماركس • لنترك جانبا كل تقييم نظري للتروتسكية ، من حيث هي نظرية ، وقد لخص غرامشي ، في وقتها ، الوقت الذي كانت فيه تحرك المعارضة اليسارية ،في بضع كلمات لا اوانيتهـا العميقـة التي وضعتها في مواجهة خطرة مـع العصر : تروتسكي ،

مخطط استراتيجي للهجوم في زمن دفاع وانكفاء فرضتهما العلاقة بين القوى بعيد ١٩٢٣ • يمكن الذهاب الى ابعد في حفرنا تحت النظرية :أليست اللاأونية هي الميزة الدائمة، الجوهرية ، للتروتسكية وبمعنى ما ، علة وجودها من حيث انها مسخرة سياسيا لموقف شعوري ،
لا تاريخي تصب فيه ديانة العذاب القديمة جدا ، الثابتة جدا او يصيب فيها ؟ لماذا تكفي دقيقتان من الحديث للتعرف على التروتسكي في شخص لا نعرفه ؟ هذا عائد،دون شك ، الى المفردات ، او الى ما تتضمنه ، الى ثلاث او اربع مصطلحات اساسية ــ البيروقراطية ، تيرميدور ، التسيير الذاتي ، الخ • أو هو عائد بالاحرى الى نبرة صوتية ، الى نوع من الصرير التشنجي او الهازىء او التعس ، الى شيء من المرارة او الخيبة • ان التروتسكي ، المعارض بطبيعته حتى داخل منظماته الموجود دائما بين انشقاقين ، يبدو بطبيعة الحال نزاعا الى الغيظ • انه مخذول ، مخدوع شأن البروليتاريا،وسيكشف غدا قادته المرتشين،واكثر ممثليه صفاء سينسبون الى الامية الرابعة • هذه النبرة آتية من موقف ــ ازاء ــ العالم ، من بنية التجربة • انها الطيبة الثائرة على مجرى الاشياء ، الفاسد الضال عن حقيقته ، الملوث • للبيروقراطية عشرة الاف راس وكل ما يجري هو من شرور البيروقراطية • التروتسكي ، شأن النفس الطاهرة ، يشكو شرا لا يقدر ان يستغني عنه ،

والذي تصل شكواه حتى الى المحافظة عليه • كل تجسيد تاريخي للثورة الاشتراكية ملوث في أساسه ، ولهذا فان الشك فيه مهما حدث ليس خطأ بل احتراس ، مسلم بصحته سلفا • هذا يشبه كثيرا اليهودوية Judaïsme الفلسفية التي حددها هيغل الشاب في دراسته عن « أصل المسيحية ومصيرها » • فالتروتسكية ينطبق عليها ما ينطبق على ابراهيم : « الابتعاد عن كل مصير هو بالضبط المصير الاعلى • » الحكومة العمالية ــ الفلاحية ، والبروليتاريا هما تجريدان عموميان ، لا حركـة فيهما ، محكومتـان بالتيبس في المرارة المتهمة ، دون قدرة على الارتباط مع الخصوصية الواقعية لهـذه الحكومة الاشتراكيـة لهـذه البروليتاريا • ما من مصالحة ممكنة مع القانون • وعلـى الفكرة ان تظل متعالية عن الممارسات الوضعية • الموجود أثيم ، يتلوث بالمعطى • ان التروتسكية ــ أعني هـذه النقطة الصافية صفاء مثاليا والتي تتوحـد فيهـا الشيع الممزقة للأممية الربعة ــ الكلية النقد ، الكلية العلم ، تفارق هي نفسها كل مسؤولية وضعية ، ولا تضمن أي دولة ، او شعب او ثورة جارية • ليس هذا فشلا او عرضا ، وانمـا هو ضرورة طبيعية ،واجب تقريباء ان طبيعتها هي ان تعاكس الطبيعة ، ان تتملص من كل وضعية ، ان تمارس بلا كلل مهنة النقض التي تنسب ، سلبيا ، منذ هيغل ، فالعمل الذي يشبه عمل السلب هو وحده الذي يستحـق في نظرهـا

الغفران : ينبغي اذن رسم الخط الفاصل دائما بين المشبوه والطاهر . الكفاح في فيتنام طاهر بشكل معجز ، لكن يجب الاحتراس في دراسة محتواه السياسي ، وبرنامج **الجبهة** والتحالفات السياسية ، وطبيعة الثــورة الديموقراطيــة الفيتنامية .R.D.V ونظامها الاشتراكي اذ « لا بــد من تحفظات » حول هذه الموضوعات كلها . هذا ينطبــق كذلك على العلاقات بين كوبا وتشي ، او الشخص المشوه اللاتاريخي الذي صنعوه منه دون علم ، وبافضل النوايا غالبا . من المؤسف ان يوما سيأتي يسيطر فيــه علــى السلطة ، ويأخذ السلب مضمونا محددا . سيكون ثمــة دائما سلطة معينة ، دولة معينة ، امة معينة . كل سياسة ايجابية ، اذن طبيعية ، مشبوهة ، مختصة بوضع جغرافي ، بماض قومي ، بثقافة محددة ، بفضاء حضاري . هــذا المحتوى بالنسبة الى المجرد العام ، يلوث . ذلك واقع ، قدر ، كما هو الشأن ، بالنسبة الى دولة اشتراكية معينة ، لا تملك مصادر للطاقة الطبيعية (فحم ، نفط ، مجاري مياه) ، واقعة على بعد آلاف الكيلومترات من أول بلد صديق ، مرتبطة تقليديا ، من حيث هي دولة لا تزرع الا محصولا واحدا Monculture ، بالتجارة الخارجية ، الخ ... ، كثيرة لا تسمح بتبني أية سياسة مهما تكن ، في أية لحظة مهما كانت ، وهي تضفي على السياسة المتبعة ثقل الايجابية الممكنة ، لكنها تسمح للميتافيزيقيين بتوجيه تهمة

« الانتهازية » بشكل لا مبال وغير مسؤول ، يدينهم هم وحدهم • ولا تمثل أمام التروتسكية ورصفائها في الميتافيزيقا ، أية دولة اشتراكية بريئة ، لا لسبب الا لان جميع الدول ، التي تستحق على الاقل أن توصف بأنها « اشتراكية » ، انما هي دول قومية : الشك يخيم عليها جميعا • كيف كان يمكن التروتسكية أن تؤول في محاولات « التجسيد » التاريخي : بوليفيا الحركة القومية الثورية ، (M.N.R.) ، جزائر بن بيلا ، غواتيمالا ؟ وفي النهاية سوف يفشل كذلك اندماجها في الشبيبة الفرنسية • صحيح أن المكان ، الشاغر ايديولوجيا ، كان ينتظر من يملؤه ، وكان الفراغ يمثل دور الشراقة • لكنها لن تستطيع أن تملأ تماما ، بلا قناع ، هذا الفراغ ، ليس لان اتجاهات أخرى ستحول بينها وبين ذلك من خارج وحسب ، بل كذلك بسبب نوع من العائق الداخلي • وليست حيلة تكتيكية ، بالنسبة الى الاوفياء قدماء الاممية الرابعة ، أن يبقوا معتكفين ، وراء الشبان ؛ فهذا الاعتكاف ، ونتكلم هنا بلغة هيغل ، هو اللاموقف الذي اتخذه ابراهيم البدوي والذي لم تكن أرضه أو عالمه أو أقرباؤه في أي مكان «كان يرعى ماشيته على هذه الارض ويرحل » • ان وعي التروتسكي يستبعد الكل والكل يستبعده • انه لا يغتفر نفيه لذاته أكثر مما يغتفر للآخرين نفيهم له • ان الانشقاق الذي هو عنصره ، والذي هو مكان لذته وألمه ، موجود في كيانه ذاته • التروتسكي السعيد غير

موجود • ان شقاءه وفشله يبررانه ويؤيدانه في نفوره القاطع من « البيروقراطيات » • واذ ينفي جميع التجسدات الفعلية خارج الدائرة النظرية للاشكال المحضة ، ينفي كيانه ذاته خارج التاريخ الفعلي ، وتنتهي المسألة ، ويبقى التروتسكي دائما على حق •

ان التروتسكية من حيث هي قدر لاحق لتروتسكي ، الانسان المدهش ، ملجأ رفيع • هذه الايديولوجية التي هي مفتاح عمومي لكل شيء ، كان يمكن أن يتنصل منها لكن لم يكن ممكنا ألا تكون ايديولوجية : والحاصل أنه لم يرد أن يكون هي ، غير أنها انتهت بأن تصير هو ، بأن تصير قدره • ان قدر اللغة السياسية هو كذلك ان توقظ بهذه التأملات بعض القربى المشبوهة من جهة « لغة الغابة » والتهم الستالينية المشؤومة ، العالقة بهذا الموضوع • هذه اللعنات المتوترة تخص الماضي • ان الانجاز المدهش الذي حققته الثورة الجارية في أميركا اللاتينية ، هو الذي جرف جميع هذه الانحيازات التي ورثناها من القارة القديمة ، ووصل الى هذا الحد في قضائه على تفكيرنا التحزبي الضيق • وهو الذي علمنا أن نميز بين قيمة المناضلين ، المتساوين جميعا في الحقوق والواجبات ازاء المهمة المشتركة التي يجابهونها سويا ، والسند الذي يمكن أن يشكله هذا أو ذاك في موسوعة الايديولوجيات الكلاسيكية • الاحترام والاعجاب بلاحدود لهوغو بلانكو Hugo Blanco لسيزار

لـــورا César Lora لغــونــزاليس مــوسكــوزو Gonzalès Moscoso وجميــع الذيــن استشهدوا في المؤامرات البوليفية ، المزوجين كلهــم تحــت اســم : « تروتسكيون » •

الدور المزدوج للازمات السياسية ـ الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي

مثـــل ثنائي : **الازمات المزدوجة الحــد** ، في تاريخ المجتمعات الرأسمالية المتقدمة • لهذه المناسبة نذكر باستباقية البيان حيث قال : « لا تستطيع البورجوازية أن تعيش الا اذا أدخلت تغييرات ثورية مستمرة على أدوات الانتاج ، أي على علاقات الانتاج ، أي على الشروط الاجتماعية بأسرها • وعلى العكس من ذلك ، كانت المحافظة على أسلوب الانتاج القديم ، الشرط الاول لحياة الطبقات الصناعية السالفة • ان ما يميز العهد البورجوازي عن جميع العهود الاخرى ، انما هو الانقلاب المتتابع في الانتاج ، وتزعزع المؤسسات الاجتماعية كلها بشكل مستمر ، انه باختصار ديمومة الحركة وانعدام الاستقرار » • البورجوازية تتطور اذن بشكـــل طبيعي عبر أزمات متتابعة • وطريقة الانتاج الرأسمالي ثورية من حيث أنها تنطوي باستمرار على تغييرات تقنية ، في جهاز الانتاج ، ومن حيث أنها تستدعي هذه التغييرات التـــي تصاحبها أزمات اقتصادية وايديولوجية وسياسية • وأذ

نعتبر بشكل آلي مثل هذه التغييرات دليلا على نهايتها ، أمر خطر وساذج • فالرأسمالية تظهر بذلك من بعض النواحي، حيويتها ، ونمو قواها الانتاجية ، وأهليتها علـى الصعيد السياسي لاعادة اللعبة من جديد ، واقامة تحالفات طبقية جديدة • ذلك بدهي بالنسبة الى الحروب الامبريالية ؛ فهذه الاشكال التامة المتعددة الجوانب لـ « أزمة النظام الرأسمالي العامة » ، قامت في الواقع بدور المهماز بالنسبة الى قواها المنتجة (في الولايات المتحدة) ، أو هيأت لها فرصة انطلاق جديد ، ونهضة في النمو الاقتصادي ، بفضل تصفية البقايا الاقطاعية أو أجهزة الانتاج البالية (المانيا ، اليابان) • ان الرأسمالية قابلة ، بتعبير آخر ، لان ترسمل أزماتها الخاصة وأن تتجدد من خلالها • حتى أنه يمكننا أن نقيس حيوية مجتمع بورجوازي ما ، بقدرته على استقبال أزماته الخاصة، وتفسخاته الداخلية ، وقوى الانفصال فيه ، أو بقدرته على امتصاصها • البرتغال تجهل الازمات ، فالاسكودة[١] بخير ؛ ان الاستقرار البرتغالي علامة علـى التعفـن الاقتصادي والسياسي ، والوهن المفرط في تطورها الرأسمالي ، والميوعة الايديولوجية في طبقتها المسيطرة • هذا الجمود علامة مرض أكثر استعصاء على الشفاء من الهزات المتتابعة التي تصيب المجتمع الفرنسي أو الايطالي • وعلى العكس مـن ذلك ،

---

(١) الوحدة النقدية في البرتغال (المترجم) .

تعيش أشباه المستعمرات الرأسمالية في أميركا اللاتينية في حالة أزمة مستمرة ، لكنها لا توفق في أن تجعل منها المحرك لتطور بورجوازي صحيح • ان البورجوازيات الاميركية اللاتينيــة عاجزة عــن آن ترسمــل أزماتهــا السياسية والاقتصادية ؛ ان طاقتها للهيمنة على مجموع المجتمع هي من الوهن والميوعة بحيث تقسر على حلها بالكبح ، والقمع الجسدي ، والخنق البوليسي • ان لجوء الطبقة الحاكمة الى القوة الخالصة دائما هو علامة ضعفها المفرط • كــل اضراب ، كل مظاهرة ، كل معارضة لسيطرتها مهما قــل شأنها تحكم عليها بأنها تتنافى مع النظام الدستوري ، وبأنها تمارس التخريب ، وتلجأ الى القوة لمجابهة القوة الخالصة • هذا النقص في طاقتها على الهيمنة يتجلى بالنقص في المرونة السياسية ، وفي هذا القصور الذاتي الذي ترجه التشنجات المتنافرة ، وردود الافعال العصبية التي تميز الزمن السياسي الاميركي اللاتيني •وكما أن الطبقة الحاكمة ، التي تنتحل البورجوازية ، لم تعرف أن تباشر تراكم رأس المال ، بطريقة منظمة ومستقلة ، فقد تأكد أنها عاجزة عن أن تتقدم سياسيا، أن تعيش زمنا سياسيا تراكميا ومرنا • ان تتابع الانظمة السياسية ، والانقلابات الدائمة ، والبلبلة وتبــدل آراء الزعمــاء السياسيين أشكال مشوهــة وسلبية للتقلقــل البورجوازي ؛ انهــا حركة مستمرة لكــن بسبب انعدام الحركة العميقة • في هــذه الحالة تصبح الازمة السياسية

المستمرة هـي علامـة الركود الاقتصادي والاجتماعي ، والشكل التعبيري للزمانية غير الديالكتيكية .

اذا تأملنا الآن في طبقة مسيطرة ذات جدارة تاريخية مثلا ، فاننا نلاحظ القدرة على تحويل التناقض الداخلي الى دافع للتجدد (نسبي ، طبعا . فالبنية تبقى على حالها) ، دفاع للتجدد (نسبي ، طبعا . فالبنية تبقى على حالها) ، والخصم الاجتماعي الى شريك ، رضي أم لا : من هنا الجرأة الاكيدة، وحرية الفكر ، وقدرة الاستقبال لدى البورجوازية الفرنسية ، غير المفهومة حرفيا ، أي الفاضحة بالنسبة الى بورجوازي بوليفي ، مثلا . ان مفهوم لفظة « بورجوازي » فقير جدا اذا أدركنا أن فرنسا وبوليفيا الحاليتين ، وهما مجتمعان متضامنان «نظريا» ضمن معسكر واحد في الكفاح الطبقي الاممي ، وكلاهما ضمن « المعسكر البورجوازي » ، غير قابلين لتقييم مقارن كمي (أحدهما متطور ، قليلا أو كثيرا ، « اقطاعي » قليلا أو كثيرا ، الخ.) : انهما عالمان من السيطرة الاجتماعية ، متميزان تميزا نوعيا ، كوكبان تفصل فيما بينهما آلاف من الكيلومترات الزمانية ـ المكانية . (تصبح جريدة الفيغارو هنا هدامة ، ولا يسمح بتداولها) . هـذه القدرة الاجتماعية ، التاريخية على الامتصاص والتعويض تسمح للبورجوازية بـأن تتصور وحدتها كحركة ، وأن تحول التصدع الى لحظة ضرورية ومؤاتية ، بعد كـل حساب ، لتلاحمها الخاص . (مجيء

المجتمع البورجوازي في ايطاليا مع كافور ، ونشوء عقلية جديدة داخل العقلية القديمة يصورهما على نحو رائع لامبيدوزا Lampidusa ، في انشقاق الابن عن الاب ، الاقطاعي المنطوي على خوفه قبالة المغامر الحذر ، كما يمثله ديلون Delon في فيلم فيسكونتي Visconti ، والذي يرى أن الجرأة هي الوسيلة الاكثر سلامة للمحافظة على المصالح الابوية ، والذي يسمح لنفسه بالقميص الاحمر الغاريبالدي الى حد ما . « فلكي لا تتغير الاشياء ، يجب أن نغيرها ») . انهـا تقسر خصومها على المعارضة ، على منازعتها السلطة في مرتعها الخاص (الايديولوجي ، الدستوري ، الانتخابي) . ان احترام الشرعية في فرنسا هو ، موضوعيا ، تقليد جمهوري ، « يساري » تاريخيا ، ويعقوبي (ضد العصاة ، لا فندي Lavendée بولانجيه Boulanger ، الخ.) ، مع أنه يمارس الآن تحت رقابة « اليمين » الفعلية . ليست المسألة أن نسقط في الطرف المعاكس الاحادي الجانب ، بل أن نعيد الى « أزمات » المجتمع البورجوازي ازدواجيتها التاريخية ، وأن نلح على فكرة ان هذه الازمات الخاصة بالتطور الرأسمالي غير « ملائمة » في التحليل الاخير ، بالضرورة ، ذلك أن ثمة استخداما جيدا للازمات وآخر سيئا ، وأن في هذا الاستخدام ذكاء جيدا وآخر سيئا. الازمة ، في هذا الاطار ، ليست « حفلة أولى » ، أو هي تكرار كذلك بالنسبة الى

أولئك الذين لا مصلحة لهم في أن يتم « الاصل » • انهـا بمثابة انذار للجانبين اللذين يمكن لكليهما ، أو يمكـن لاحدهما بشكل أفضل مما يمكن للآخر ، أن يختص نفسه بنتائجها ، وأن يستخرج منها الارشادات التي تلائمه أكثر مـن غيرها ، ويظل العنصر الحاسم في المعالجة السياسية والنظرية التي تعالج بها الازمة ذاتها والمجتمع الذي أصابته الازمة • ما يمكن أن يعلن موت هذا التشكل الاجتماعي في حالته الحاضرة ، يمكن كذلك ، من ناحية ثانية ، أن يفيد في بقائـه • والكلمة الاخيرة تخص الاطباء ، أي المسؤولين السياسيين • أكيد أن من الممكن ، حكميا ، الاعلان أنـه سيموت يومـا ، وأن ثمة قانونا معينا لتتابع التشكلات الاجتماعية ، وأن الرأسمالية « تلد نفيها الخاص في الحتمية التي توجه تحولات الطبيعة » • لا بد كذلك ذات يوم من التساؤل بجدية عـن نموذج الضرورة العامل في التطور التاريخي العام ، وعما اذا كان هو ذاته الذي يباشر العمل ، وبالطريقة ذاتهـا ، في مختلف مراحل التطور الاجتماعي ، ضمن المجتمع البدائي وضمن رأسمالية الاحتكارات •

لنقل الآن ان الطب ما كان ليتقدم كثيرا ، ولكانت الانسانية اقل تقدما كذلك ، لـو تمسكنا منذ ابقراط Hippocrate بهذا اليقين الـذي لا يتزعزع ، والسلبي والمجرد بشكل مرعب ، الارهابي اذا دفعناه الى غايته ، من أن كل كيان عضوي حي هو ، طبيعيا ، صائر الى الموت ،

وليس مهما ، اذا لم نشف من الموت ، اعطاء بضع سنوات اضافية من الحياة الى انسان مريض • ليس مهما ـ بالنسبة الى من ، وبالقياس الى أية « مصالح عليا » ؟

ان أزمة نظام ما ، ان أزمة سياسية ـ اجتماعية تفعل ، في هذا الاطار ، في آن ، ككاشف ، كتعرية للبنى ، وكتغطية محتملة ، أي كفخ ايديولوجي • انها تكشف مثلا حضور التناقضات ، بين جماعية الانتاج الرأسمالي والتملك الشخصي للربح ، وتكشف ثبات صراع الطبقات الراسخ موضوعيا ، مكذبة بذلك الايديولوجية المسيطرة • لكنها تجيش من جديد هذه الاخيرة ، وتكشف لها النقاط الاسرع تأثرا في نظام المؤسسات ، الجامعة مثلا ، حيث يتجمع حشد من التناقضات غير المحلولة ، وقد وصلت الى نقطة التحول الحرج : التزايد السكاني (الديموغرافي) ، قدم التجهيزات، عدم تلاؤم التعليم مع متطلبات الانتاج ، ضعف سوق العمل، أزمة الايديولوجية المسيطرة ، الخ • تتيح الازمة آنذاك انقاذ العضو المريض موقتا بجذب انتباه الطبقة المسيطرة نحو مكمن الداء ، في الوقت المحدد • صحيح أن الحمى المعلنة تشير الى مرض ، لكنها تسمح كذلك بحصره ، والتحقق من طبيعته ، وعزل العضو الاكثر تأثرا به ، وتجميع النتائج العلاجية من كل نوع • الازمة ، بالنسبة الى ممثلي الطبقة الحاكمة ، كالحمى ، علامة سيئة واشارة ايجابية في آن • ان الاصابة المعلنة،او الجرح الواسع افضل من سرطان

معمم ، مستتر ، يفعــل خفيــة ، لكــن يتعــذ اكتشاف مكانه ، فهو لم يظهر في أي مكان ، لانه غير مستقر . قد تضحك هذه التشبيهات الطبية ، بيــد أن للديموقراطية البورجوازية امتيازا كبيرا على الاشتراكية البيروقراطية ، هو لجوؤها الممكن الى جمع اشكال الطب الوقائي بفضل الانتخابات التي هي بمثابة ميزان للحرارة ، والتخطيطات الشعاعيــة الدوريــة للجسم الاجتماعــي ــ السياسي ، واستفتاءات الرأي العام ، والمعارضة التي هي بمثابة مثبت للحرارة ، وجميع أنواع الصراعات التي يمكن قبولها أو احتمالها (الاضرابات الاقتصادية ، الحملات السياسية ، المهاجمات الايديولوجية) التــي تتوصل عبرها السيطرة الطبقية ، كيفما كان ، الى الضبط الذاتي وسد الثغرات الاكثر خطرا (في ٦٨ ، الثغرة الجامعية ، بفضل ادغار فور ، الطبيب السريري الفريد) ، واتخــاذ جميــع الاحتياطات العاجلة . ولقد مثل عام ١٩٣٦ نصرا كبيرا للطبقة العمالية ، غير أن هذا الانتصار لم يسبب هزيمة ذات شأن للبورجوازية الكبيرة . ولــم يستمر ، على الصعيد السياسي ، الا فترة وجيزة . أما ، على الصعيد الاجتماعي ، فان منجزاته باقية لكنها ، فضلا عن ضرورة الدفاع عنها باستمرار ، أو الكفاح للحصول عليها من جديد ، ضمنت من ناحية ثانية توازنا جديدا لعلاقات الاستغلال ، يعادل تسوية جديدة . أكيد أن ذكرى أزمة كبيرة ــ ١٩٣٦ ، ١٩٦٨ ــ انما هي ذكرى

معبئة • انها تعين اتجاه تراث من الكفاح ، وتعمق الوعي الطبقي ، وتبـــرز ضعف الخصم ، والامكانيات الضخمة للجماهير المتحدة ، وضرورة الوحدة ، الخ • غير أن تحول الازمة الى أسطورة في الذاكرة الايديولوجية ينطوي على عنصر مخدر • الذاكرة الغنائية ، التذكر المعاد يحجبان واقع أن النظام سيطر في التحليل الاخير علـــى الازمة ، وأنـــه استخدمها ، وأنه أفاد منها حتما في خدمة أهدافه السياسية أو الاقتصادية ، وأنه بالتالي استمر يفعـــل وكأن فعلـــه استباق • أما الاسطورة فتلعب دور الاستيهام الهروبي ، والتعزية المثالية ؛ وهي لحظة تعبىء ، قـــد تشل الحركة الراهنة باسنادها دائما الى نموذج ، الى قاعدة ماضية• تخلق آنذاك طبقة مـــن « القدامى » ، مـــن الشيوخ المناضلين المسلحين بمبدأ السطوة (« لـــم تشهد سنة ٣٦ ، لم تشهد سنة ٤٥ ، لم تشهد ايار ، اسكت اذن أيها الرفيق ، فأنت لا تعرف ما تقول ، الخ• ») ، وتخلق بروليتاريين بشاكلة واحدة من قدماء ــ المحاربين ــ لم ــ نرك ــ في فردان ــ أيها ــ الفتى •

« الازمة » : «لحظة حاسمة خطرة في تطور الاشياء» • لا نقدر أن نستسلم لصوفية الازمة ، الشبيهة بالصوفيات التي تجاور العنف ، كمرادفة مجردة للثورة ، والتخيلات الرؤياوية • كذلك لا نقدر أن نتصور تطـــورا اجتماعيا مستقيما ، سلسلة من « الفتوحات المتعاقبة » من « المراحل

التقدمية » ، لا تفصلها مفارق ومنعطفات قابلة ، كل مرة ومرارا ، لاعادة النظر في اتجاه السير المعني (الطريق نحو الاشتراكية ، مثلا) ، بما في ذلك الفتوحات المنجزة • ان في ذلك صوفية من نوع آخر ، تنتحل العقلانية • لا يمكن الاستسلام لعدل عبادة الالـم القديمة ــ الشخصيـة والاجتماعية كدليل على التطهر والتكفير : «المجتمع المدني» يكفر عن آثام عادته ، عـن دناءة « مصالحه » في الحرب الاهلية • لكن ما لا يؤلم ، في التاريخ ، يدفع بالتقسيط ، بآلام مخففة • حين واجه لينين قبل أوكتوبر بفترة قصيرة تحولا غير مؤلم نحو الاشتراكية ، لم يكن يستند الا الى فرصة دنيا لا بد من اغتنامها في اللحظة الحاضرة ، لكن لم يكن يمكنه الا ان يرجىء تجربة القوة مع البدان الرأسمالية المحاربة المتحالفة مع الرجعية الداخلية • ينبغي أن نفهم ما كلف تشيكوسلوفاكيا والديموقراطيات الشعبية الاخرى وما سيكلفها كونها لـم تلد قـط بنفسها اشتراكيتها ، وأن الاشتراكية الراهنة فيها لم تقدر مطلقا أن تصبح اشتراكيتها تماما ، وأنهـا ظلت ابتكار الجار ، وموضوع اتفـاق أو مفاوضة ديبلوماسية • ليس صدفـة أن يتكـرر المجـاز البيولوجي والعضوي بانتظام في كتابات ماركس ــ انجيلز حينما يصفان تحولات التشكل الاجتماعي • فهما يتحدثان عن الكليات الاجتماعية المنظمة التي « تلد » ، « تضع » ، « تخلق » كلية منظمة مـن طراز جديد ، تحتويها ، تجيء

« في وقتها » ، لكنها تتألم حين تضع • الولادة اتصال وانقطاع في آن غير الاتصال لا يكون الا بالتمزق • الوحدة تتجزأ لكي تلد وحدة جديدة ؛ فالتشكل الاسمى انما يخرج من انشطار التشكل القديم • ان ايديولوجية « التغيرات » تفترض تغييرا آليا للاوالية ، أعني تطورا عفويا وآليا يصيب بالتتابع ومحليا الاجزاء التي تنفصل عن المركب • ولكي نتحاشى من اعتبار الازمة العامة لحظة ضرورية وحاسمة من تطور تاريخي ، لا بد أن نتحاشى من اعتبار المجتمع المحدد ، موضوع التطور ، كلا عضويا • ان الاوالية الاصلاحية توضح تصورها للمجتمع • والديالكتيك الثوري يفعل الشيء ذاته •

الازمة ــ الرحم

بين الاسباب التي تحول دون أن تخضع الفترات أو المراحل المتتابعة من سياق تطوري (مثلا ، سياق الانتقال الى الاشتراكية ، الى الثورة) الى تخطيطات مصغرة أو تقديرات مجملة ، سبب يعود الى أن كل فترة أو كل مرحلة تحدد طبيعتها ، بشكل مباشر ، الازمة التي ولدتها والطريقة التي حلت بها هذه الازمة • لا يكفي القول اننا لا نقدر أن ننتقل من سياق الى آخر ، من الرأسمالية الى الاشتراكية ، دون أن نجتاز أزمة أو عدة أزمات (« خطرة وحاسمة ») تشمل مجموع السياق ، ذلك أن « لحظة الازمة » لا تعزل

ولا تحيـد ، كدرجة ، كفاصل ، كمعبر ، انهـا تندمج في السياق الجديد الذي نشأ عنها ، وسوف تحدده على مدى تطوره باعتبارها الشرط الاكثر حسما بين شروط وجوده التاريخي • انها من السياق بمثابة رحمه التاريخية ، تشكله وتميزه • (« على أساس الشروط السابقة » تعني بشكل خاص « على أساس الحلول التاريخية للازمات السابقة »)• ان الطريقة التي حلت بها أزمة مـا ، أو كيفية نشوء نظام اشتراكي ما ، توجه كيفية ظهور الازمة التالية وطريقة حلها ، أو امكانيات الوصول الـى مجرى جديد • حـين تنفجر الازمات تبدو كأنها تضفي على التاريخ فتوة خارقة : كل شيء ممكن ، أي أن كل شيء يبدأ من جديد • والواقع أن ذاكرة مديدة ما تني تفعل في أكثر الازمات مفاجأة ، وأقلها قابلية للتوقعات ، هي ذاكرة الرحم • ومن هنا تكون اللحظة القصيرة من الازمة حاسمة ، تبث في الازمات الآتية • من هنا كذلك وجود ما لا يمكن تلافيه في السياسة ، فقد ينتج أحيانا عن بعض الاخفاقات الثورية ما لا ينعكس ، أضف الى ذلك أن الانتصارات ذاتها يمكن ، وفقا لشروط تحققها ، أن تكون حبالى بالانهزامات أو الحواجز أو التراجعات ــ في حـين أن بعض الهزائم زاخرة بالمستقبل ، بالوعود ، وايجابية على المدى الطويل • ولئن أمكن اعتبار «الحركة» أو بالاحرى « الحركة المضادة » في براغ (١٩٤٨) انتصارا للاشتراكية ، فان الشروط التاريخية لهذا «الانتصار» كانت

تكشف في داخلها التطور (السياق) الذي أدى الى التدخل السوفياتي في آب (الازمة) • ان ما حدث في ١٩٦٨ هو اذن من منطق ما حدث سنة ١٩٤٨ ، فهو منه بمثابة المقابل ، والاداء المؤخر • ان نظاما اشتراكيا لم ينشأ عن أزمة ثورية أصيلة عميقة انحلت علــى أساس قواها الداخلية الخاصة والقومية ، في أثناء محنة تاريخية طويلة وقاسية ، انما ينطوي في داخله على بذور انهياره ــ أو على بذور تشوهه • ان تقتيرنا في الثورة مــن أجــل بنــاء الاشتراكية بطريقة « اقتصادية » ، « غير مؤلمة » ، « مرضية » يعني أننا نخلق في الغد القريب شروط الثورة المضادة •

بهذا المعنى يمكن ويجب أن نسأل كل نظام اشتراكي قائم : « قل لي عن أية أزمة نشأت ، أقل لك من أنت • قل لي بأية طريقة ، واستنادا الى أية قوة اشتراكية فاصلة وعلى أية أرض ظفرت بسلطة الدولة ، أقل لك نوع الاشتراكية التي تبنيها وطريقة هذا البناء » • من هنــا ضلال وغرور وعقم المنظرين المزعومين ، خبراء الاشتراكية أو علمائها ، الذين ينقلون علمهم الاقتصادي من بلد الى بلد ، من جهل الى فشل ، لانهم ينزعون جميعا الى اعتبار «مرحلة الانتقال» مستقلة عن شروط وجودها التاريخي ، التي هي في المقام الاول شروط أصلها التاريخي، أعني الكفاح الثوري الخاص بكل بلد ، والذي أدى الى الاستيلاء على سلطة الدولة ، بأشكال متميزة محددة تاريخيا وجغرافيا وثقافيا • وانهــا

لجدلية ناقصة وخادعة أن نعتبر « الاستيلاء على السلطة » جوهرا مطلقا ، ممتزجا بالثورة ذاتها ، نشأنها حين نعالج « مرحلة الانتقال » بعامة ، كمشكلة اقتصادية تنطوي في ذاتها ، بشكل مستقل و « تصوري » خالص على تحديداتها الخاصة. ذلك هو ، من جهة أخرى ، سهم خبراء الاشتراكية المزعومين هؤلاء ، في اعتبارهم اياها جوهرا مستقلا ، محددا بنظام تصوراتها ، و « كيفية طرحها العلمي للمسائل » ، يتوزع هنا وهناك في العالم ، في بلدان شتى ، دون اعتبار لتاريخها الخاص ، وشخصيتها الثقافية ، وحضارتها ، ووضع قواها الانتاجية ، وذهنياتها الجماعية ، دون أن نذكر الاهداف السياسية التي تسعى اليها سعيا واعيا القيادة الثورية ، لا أية قيادة ، بل جماعة قيادية تكونت بتجربة كفاح ثوري محدد للاستيلاء على السلطة ، وفي أثناء هذه التجربة . ان أزمة وزارية ترافقها اجتماعات في الشارع (براغ) ، وحرب تحرير شعبية وطنية طويلة تشتعل انطلاقا من الارياف (الصين) ، وثورة عمالية في العاصمة (بيتروغراد) ، ومفاوضة ديبلوماسية بين حلفاء ، استندت في التحليل الاخير الى الاهمية الحاسمة للجيش الاحمر (أوروبا الشرقية) ، وحرب غوار مستقلة وقومية (كوبا ، فيتنام) لا تشكل وحسب نماذج متميزة من القيادات الثورية ، وأسلوب عمل وحياة ، وطرازا معينا من تحقيق الذات بالنسبة الى الجماهير ، تختلف بحسب الحالة ، وانما

تحـــدد كذلك طبيعة التحالفات الطبقية ، وهوية القـــوة الاجتماعية التـــي تلعب فعليا دور الطليعة ، وتحدد الدور المهيمن للجيش ، او الحزب ، أو جبهـــة الاحزاب في قيادة الدولة . ثم ان أشكال الكفاح الثوري ، اذ تحدد طبيعة التطور الاشتراكي وأشكاله ، انما تتحدد هي ذاتها بالتاريخ الماضي كله للمجتمع ، وبأشكال دخوله في التاريخ (خروجه من العصر الحجري) وطريقة سيره الاشتراكي ــ الاقتصادي التي كانت خاصة به .

يبدو أن الثورات الاشتراكية الوحيدة التي يمكن أن ترتقب تطورا نحو الشيوعية ، وعقلنة لاهدافها السياسية ، وبالتالي المحافظة على مكتسباتها الاشتراكية (التي لا تبقى الا بتجاوزها المستمر لنفسها) انما هي تلك التي تأسست في الدرجة الاخيرة على نظام تناقضاتها الخاصة ، تلك التي حلت من الداخل « أزمتها الاصلية » ، حتى لو أن مجموعة معقدة من الاسباب الخارجية استطاعت أن تعجل في الوصول الى المخرج الملائم (كالحرب الامبريالية العالمية سنة ١٧ ، مثلا) . أكيد أن ذلـــك ليس الا شرطا **امكانيا** (ضروريا وليس كافيا) : فلننظر الـــى يوغوسلافيا تيتو ، المفرطة في تعديليتها . لكن هذا الشرط ــ المنطلق ينعدم بالنسبة الى بقية أوروبا الشرقية ، فـــان انتقالها الى طراز جديد مـــن الرأسمالية (أصلي دون شك ، وليس عودة آلية الى شكل سابق) انما هو مسألة وقت . هذا التراجع الذي ذكرناه

آنفا هو بمعنى ما ملازم للسلطة الاشتراكية في جذورها ، في شكل التناقض بين الواقع القومي والاشتراكية المستوردة، المنبثقة من أوضاع تاريخية استمرت بعد الحرب • هذا التناقض ، أو هذا التنافر التاريخي نزاع الى أن يطور مذاك بعناد نتائجه في انبثاق نزعة قومية ضد الاشتراكية ، ذات صفة « بورجوازية » لكنها ذات تكون شعبي : تشيكوسلوفاكيا ؛ أو في اشتراكية قومية تضحي على مذبح استقلالها بقايا الاممية البروليتارية : رومانيا • انه انفجار مرجأ لتناقض دفين في «أزمة» الولادة ؛ ما يجيء «من فوق» مصطنع ، وما يجيء « من تحت » هو وحده الباقي ؛ « فالمعسكر الاشتراكي » لا يقدر ولا ينبغي أن يكون الا الاطار المشترك للاشتراكيات القومية ، الزاخرة بالفوارق الخاصة ؛ ولا يمكن لضروراته أن تحل محل الحقائق القومية • انه لا يقدر ولا يجوز أن يكون الا محصلة لها •

*

انه لعمل أحادي الجانب ، خاطىء ، خطر أن نحصر بحثنا عن المفتاح الذي يتيح أن نفهم مرحلة تاريخية كاملة ، في « ظروف الازمة » • فهذا الحصر غير ممكن • فكما أن التضاد ليس الا شكلا انتقاليا في تطور تناقض ما ، فان الازمة لحظة استثنائية من سياق مستمر ولا يمكن فهمها الا بالنسبة الى ما « قبلها » ، الى مجموع السياق الذي تحدد ذروته • وما من ذروة دون منحدر ، ولا قمة دون صعود •

لكن كما أن انحلال التناقض الضدي يتقرر ، على مستوى التاريخ الحقيقي ، في التضاد المنفتح وبه ؛ وكما أن الانتقال من القديم الى الجديد ، على مستوى تأمل (التاريخ الحقيقي في الفكر) يتحدد أو لا يتحدد في ظرف أزمة عامة وبه ، فان تفحص لحظة الازمة هــو الذي يحدد نظريــة صحيحة في التاريخ ويوضحها • وبايضاح نظريــة في التاريخ (العام) بنظرية في اللحظة (الخاصة) للازمة ، نستطيع أن ننقد هذه النظرية مــن الصوفية ، أعني مــن تصور مخدوع خادع للديالكتيكية التاريخية • نعرف أن هذه الصوفية ، في تاريخ حركتنا ، قــد اتخذت « الآلية Mécanisme » اسما لهــا وشكلا • ويمكن أن نطلق التسمية بالآلية علــى تصور للتناقضات تفعل فعل في الصيرورة كما لو أنه ليس لحلها أين يتخذ شكل أزمة،بالمعنى القوي والايديولوجي للتقرير• التناقضات تتكفل هي نفسها بحلها ، فليس لها أن «تحسم» بالنشاط الواعي أو العمل السياسي • انهــا تنحل بشكل حتمي ، لا مفر منه ، دون تدخل • الآلية هي اذن اقتصادية ، تنزع الى الغاء ضرورة السياسة ، ذاتها ، والدرجة السياسية في التشكل الاجتماعي ضمن السياق الاقتصادي • الآلية مفهوم عن الكفاح الثوري يتحاشى أن يعتبر هذا الكفاح استراتيجية ، يعنــي سياسة في الدرجة الاخيرة ، أو فــن القرارات الممكنة• ان لحظة الازمة هي اللحظة الاستراتيجية في « تطور الاشياء » ، وهي كذلك اللحظة التي تكشف

جوهر السياسة وطبيعتها ـ وجوهر « السياسات » العدوة وطبيعتها ـ كاستراتيجية • وفي هذه اللحظات من الكثافة القصوى ، في هذه الذروات يبرز جوهر السياسة ، مقود الكفاح الطبقي ، اذن فن مجابهة الازمات السياسية ، ذلك أن هذا الكفاح ينحسم نهائيا على مستوى الكفاح من أجل سلطة الدولة • سنرى فيما يأتي هــذه المسألة : السياسة = الازمة = الاستراتيجية • الآلية في المجتمعات الرأسمالية تنتظــر الخلاص الثوري مــن عودة الازمات الاقتصادية دوريا • وهذا يوحي بتحليل اقتصادي ، بمناقشة خصائص المرحلة الحالية للنظام الغربي ، من أجل تعيين ضرورة هذه الازمات ومرحليتها المزعومة ، وتعيين وسائــل تمويهها ، الخ • لكن ينبغي ، على أي حــال ، أن نلاحظ أن الازمة الاقتصادية ليست قطعا استراتيجية بذاتها ، وهي لا تصبح استراتيجية الا بنقلها الى المستوى السياسي ؛ تستطيع في الاكثر أن تنظم طريقة المجابهة ، أن تقترح مسلمات الكفاح أو تعدلها ، أن تغير بشكل ملائم العلاقة بين القوى الراهنة ، دون أن تلغي اطلاقا حيز مناوراتها السياسية • حــين قال لينين ألا طريق اطلاقا دون مخرج بالنسبة الى البورجوازية ، فانه كان يشير الى ان هناك دائما مكانا لبديل،أي لا تتمكن أية حتمية اقتصادية من أن تحسم سلفا ، بدلا من العوامل الاجتماعية ، في أي اتجاه سينحل صراع طبقي محدد • ان أزمــة ٢٣ « حسمها » الرأسمال المالي الالماني في اتجــاه

الفاشية ، ولـم « تحسمها » الطبقـة العمالية في اتجـاه الاشتراكية ؛ وقـد « طرحت » الازمة الاقتصادية علـى الفريقين الطليعيين المتضادين (في ظروف غـير متساوية ، طبعا !) معركة سياسية ، خسرتها الطبقة العمالية ، سياسيا ، بقيادة أحزابها ونقاباتها • مـا مـن أزمة اقتصادية تسمح بالتملص مـن الازمة السياسية ، ومـا من علـم للآليات الاقتصادية يعفي نفسه من فن قيادة المجابهة السياسية ، أي أنه لا يستبعد اطلاقا **امكانية** الهزيمة •

الاقتصادية والآلية نزعتان جبريتان دنيويتان ، فوض أمرهما الى **الخير المطلق** ، لون الرجاء ، من حيث أنهمـا تتضمنان فكرة دينية عن الضرورة • وقد أوضح غرامشي الدور الايجابي الذي يمكن أن تلعباه في فترات التقهقر ، كفلسفة شعبية وايديولوجية تعويض، فتتيح للقوى الثورية، للبروليتاريا ، أن تتجاوز وهن العزيمة ، والشعور بالعجز ، وفقدان السيطرة على الحدث • يقال آنذاك : « الزمن يعمل في صالحنا ؛ تتراجع لكـي نقفز بشكـل أفضل ، تأجـل الامر ••• الخ• » يمكن كذلك أن نوضح كيف أن الآلية تدوم في الحماسية ، بعـد الظفر بالسلطة في ايديولوجية « المعسكر الاشتراكي » الرسمية • فلا تني قوى التقدم تتقدم ؛ غدا يتحقق النصر الشامل ؛ احتضار الرأسمالية ؛ الانتفاضات الاخيرة ، الخ • ان يقـين الايام المقبلة يسمح اليوم بـأن تترك لمجرى الاشياء عفويته ، وشعر الاناشيد

المقبلة يقوي النثر الاداري الحزين للحاضر ، وكم هو صحيح ، اذا عكسنا كلمة لغرامشي ، القول ان تفاؤلية العقل تجر الى تشاؤمية الارادة . لا تعود الآلية اذاك ايديولوجية تبشر بالعمل ، وتجيش الطاقات ، بل تصبح تسريحا للطاقات وتسويغا للقصور الذاتي . من هنا هذا التناوب الطويل الامد بين الجمود واليقظة المفاجئة المجنونة ، بين الغبطة اللفظية المذهبية وانتفاضات الرعب ازاء ظروف الأزمة الداخلية أو الدولية ، التي تميز دول الاشتراكية «الظافرة» (المعذبة والمكافحة) .

الدين الهيجلي التاريخي

وبعض نتائجه المشروحة بحرية :

ملاحظات وقحة

يمكن أن ينظر الى الاوالية ، في مختلف تحولاتها على انها النتيجة الاكثر مباشرة لمجرد قلب الديالكتيك الهيجلي ؛ أي على أنها خاصية الديالكتيكية الروحانية وقد أوقفت على قدميها فباتت تسير بخطى تطور القوى المنتجة وليس بفعل الفكر . واذا كانت ثمة ماركسية ما تنتسب الى ديانات **الكتاب** فذلك تبعا لتبني هيجل وفلسفته في التاريخ تبنيا حرفيا وانما مقلوبا بحيث يبقى الفكر جوهرها . ينبغي أن نلاحظ على الفور ، أن المقصود هنا تحدر عضوي يصيب بعض الماركسية على أنها علم من الداخل ، ولا يتأتى من عنصر ديني خارجي ، ناجم عن تحول نظام تصوري الى معتقد شعبي والى ايديولوجية للجماهير ، تفعل كرباط تماسك اجتماعي ـ شأن كل دين، عن طريق **الوسطاء الكبار** (ماو ، الشمس الحمراء ، الخالد ، ألف عام الخ.) . **هذا الوجه للاشياء يتعلق بالدراسة التاريخية ، وعلم الاجتماع ؛**

أما النسب الذي مر ذكره فيتصل بالفلسفة .

١ ــ ان التصور العام لفلسفة التاريخ ، بالنسبة الى هيجل ، هو ان هذه الفلسفة هي تجلي العقل ، وانها ليست شيئا آخر غير هذا التجلي الذي تلتقي عبره بنفسها ، في وحدة الفكر . ان **العقل** الهيجلي ، من حيث هو **حكمة** تحقق غاياتها في العالم ، انما هو عناية لاحقة بهذه الحكمة ، عناية منطقية مع نفسها تمضي حتى النهاية . وهيجل ينقد **فكرة العناية** المسيحية (بوسويه Bossuet) ليس لما تمثله بذاتها بل لانها لا تظهر نفسها . وهو انما يقصد أن يكشف الخطة الخبيئة ، ويخترق بوساطة **العقل** طرق الله التي لا تخترق . وبهذا يكون **العقل** عناية ملحدة ، باعتباره معرضا لكل النظرات الفلسفية ، الا أنه كذلك تقي عمقيا ، لانه يظل متعاليا ، في كل لحظة من لحظات تحققه . المطلق حركة، وهذه الحركة تاريخ ، ومن الممكن معرفة هذا التاريخ . وهكذا فان هيجل سيصل الى معرفة الله (الفكرة المطلقة). ان لينين في « دفاتر حول الديالكتيكية » غالبا ما يقابل هيجل الذي يريد أن ينمي قوى العلم مع كنط الذي يسعى الى اذلال العلم من أجل تمجيد الايمان الديني . لكن الديالكتيكية الهيجلية تلغي من البداية الحد الفاصل بين العلم/والايمان ، وموضوع العلم/وموضوع الايمان : انها الشكل الذي يتيح الله معرفته من خلاله . وواضح أن هذا يلغي الامكان في المحتوى ، ويعطي التناقض خاصته الموقتة.

ان **الفكر** يلجأ الى **التاريخ** لكي يوضح من خلاله تصوره ، لكي ينتقل من الموجود بذاته الى الموجود لذاته ، أي لكي يصير ما هو عبر سلسلة من التناقضات ، لكنه ليس بذاته غير الشوق الى المصالحة مع ذاته ، واذن الى وضع نهاية للتناقض • وتناقضات التاريخ الحقيقي انما هي نتيجة لعدم امكان النمو غير المتناقض • انها أشكال انتقال تمر بها الوحدة التي سيحدد مجيئها نهاية التاريخ ، أي نهاية كل تناقض • ومثل هذه النهاية ، في نظر الماركسية لا معنى لها ما لم يكن هناك جوهر بسيط أصلي يلعب دور المحرك في السياق التاريخي • والمجتمع البشري لن ينتهي قط من تطوره ، ولن يتوقف أبدا عن تحقيق وحدته ؛ أو انه لن يحقق هذه الوحدة الا عن طريق سلسلة من التناقضات التي تنشأ بصورة غير محدودة ، وهو السبب الذي يجعل « المجتمع البشري » عاجزا عن الوجود الفعلي الا في صيغة الجمع ، أي كمجتمعات متعددة ، وأمم متميزة ، ومدنيات مختلفة الخ • (كما سيبين بلا شك القرن الحادي والعشرون بصدد المسألة القومية ــ فبقدر ما تتوحد الارض ستزداد خصوصيات المجموعات القومية ، وبقدر ما تتماثل شروط الوجود (التقنية ، والعلمية ، والاقتصادية) ستبرز الفروقات (الثقافية ، واللغوية ، والنفسية) ــ هذه الديالكتيكية بين الخصوصي والكوني لا نهاية لها) •

٢ ــ هذه الضرورة الالهية التي توجه التطور الزمني

للفكر ، تقتضي ، كشرط نظري ، نمطا للسببية التكوينية . **الفكرة هي** خالقة الطبيعة كما جاء على وجه التقريب في **المنطق الكبير** (وتعوزني هنا النصوص) . الجوهر ينتج الواقع المادي كظاهرة له ، كما أن العقل يولد التاريخ الظاهراتي ، التاريخ المحسوس للشعوب التي تمثله ، تارة في الشرق وتارة في الغرب ؛ وتقوم فلسفة التاريخ في هذه الحال على الرجوع بالظاهرة الى جوهرها الخفي ، الى علتها الوحيدة ، بمثل الطريقة التي ألقى بها بوسويه Bossuet **على الارادة الالهية** تبعة موت الصبية هنرييت الانكليزية .

٣ ــ حتى وان كان ، بالنسبة الى هيجل ، ووفقا لنسق المعرفة « ما من شيء يستطيع أن يقفز متجاوزا زمانه » قانونيا ، فان الحتمية البسيطة بموجب « مبدأ الجوهر الذاتي » هو بمثابة التحتيم المسبق . والتاريخ المحسوس بتحديداته الطبيعية ، الجغرافية والعرضية ، الخ ... لا يمكنه أن يضيف أي شيء الى الفكرة ، وهو ليس الا تجليا لها . ليس له اذن أن يعلم فيلسوف التاريخ شيئا لم يكن يعرفه ، فهو يعلمه في النتيجة فلسفته الخاصة . ان بساطة السببية التكوينية تسمح بالفصل بين الجوهر وشروط وجود الظاهرة ، وفي لغة المادية ــ التاريخية ، الفصل بين البنية التحتية الاقتصادية المحددة للكتلة المعقدة من التحديدات البنيوية الفوقية ، الاجتماعية ، والايديولوجية ، والحقوقية ، والسياسية ، الخ .. تلك هي عملية المذهبية

التي تفضي الى فكرة القانون العام كضرورة Dogmatisme
تتكامل بصورة مستقلة عن الاحتمالات الخاصة التي يتحقق
هذا القانون من خلالها ، تلك الاحتمالات التي تظل خارجة
عنه وغير متأثرة به وليست لهذا صفة الالزام . لهذا ليس
المذهبية ما تقوله به . وليست لهذا صفة الالزام . لهذا
ليس للمذهبية ما تقوله عن « الراهن » كراهن ، وهي
تقتصر على اقراره واعتباره متوافقا مع الضرورة
« الديالكتيكية » التي ليست الا عرضا له حتى لو اقتضى
الامر اقتطاع شيء من الراهن ، وحذف أو تحويل ما لا
يناسب جوهرها[1] . اقول بتعبير مستعار من علم الوراثة،
ان تكوينا سابقا Pré-formationniste
يرقد في كل مذهبي . وفي القرن الثامن عشر ، كان مستقبل
الانسان يكمن مسبقا في الرحم ، ولا يحدث له أكثر من
تغير الابعاد دون أي تبدل ، يكشف عن سماته فيما هو
يكبر . كما أننا نقرأ مستقبل وحدة اجتماعية ما ، في
التناقض ـ النواة ، وهو التناقض الذي يعارض علاقات
الانتاج بقوى الانتاج ، أي أنه انعكاس مصغر لتطورها

(١) راجع مقالات غارودي عن كوبا في ١٩٦٢ ، حيث يبين ان الثورة الكوبية « تطبيق جيد للقوانين الديالكتيكية المعروفة ، وان خصوصياتها التي لا مفر منها باعتبار انها ما يشوب كل تجسد في الواقع الملموس للمبادىء الكبرى شأن نفي النفي الخ .. »

المقبل • ان التكويني المسبق لا يدرك ما هو حي كوحدة ديالكتيكية للكيان العضوي ولشروط وجوده ، وقوتـه الوراثية السلالية وبيئتها و « ظروفها » ؛ ولاهوتي التاريخ لايدرك حقيقة تاريخية راهنة كوحدة ديالكتيكية لمبدئه في التطور والظروف التي تسمح بوجوده •

❋ ❋ ❋

ان ما يبدو كأنه محدد مسبقا ، مقدر سلفا ، في نظر هيجل وخلفه ، هو ما يلي :

ــ في التطور التاريخي ، أي في تتابع اللحظات التي يتطور خلالها **الفكـر** ، اندماج الواقـع والقيمة ، النسق المتوالي والنسق التدرجي • وما هو متتابع منطقيا ــ أي وفقا لنسق تتابع اللحظات ــ هو موضوعيا أرقى • (بالنسبة الـى هيجل ، موضوعيا تغنـي فكريا ، وبايقاف الجوهر الروحي على قدميه نحصل « اجتماعيا » على ما هو أرقى)• **ان الفكر** ، اذ يجري في العنصر الطبيعي ، يصير تاريخـا ويجمع المزيد من الفكر باستمرار • انه يدور على نفسه عبر زمـن المدنيات المتعاقبة فيزداد بنفسه وينمو ، في عفويـة جوهرية ، وهذا التزايد شأن داخلاني • وهو فيما ينمو ، لا يكف عن الاقتراب الى ذاته ، الى هذه اللحظة التي تلتقي فيها المصادفة مع جوهرها فترخي نابض التاريخ ، وتلك هي اللحظة الهادئة للراحة والتملك • انها المعرفة المطلقة ، نهاية التاريخ • هذه نتيجة « كرة ثلج » التاريخ (التي وصفها

آلتوسير بأنها « داخلانية تجميعية ») أو عملية تقرير مصير ذاتية متصاعدة يقوم بها الفكر ، منتقلا من الاكثر تجريدا الى الاكثر واقعية . اذن هنالك بالضرورة والالزام ـ وهذا هو الجانب اليقيني في ديالكتيكية هيجل ، حتى ليكمننا الدفاع عن هذا التفسير وعيوننا مغمضة ـ زيادة على اللحظة الكلية ظ بالقياس الى الوضع السابق للكل ظ ، هي « زيادة في الاقتراب الى الذات » أي انها شيء أفضل .

ان طريق التاريخ العالمي الاكثر سهولة ، في هذه الشروط ، هي طريق وحيدة الاتجاه ، وهذا الاتجاه الوحيد، هو اتجاهها الاعمق . فالفكر لا يقدر أن يتوقف ولا أن يتراجع . ان هيجل وأتباعه لا يجدون أي معنى لفكرة عرقلة التاريخ ، وبالاحرى لفكرة التقهقر : فلا سبب لها ، لذلك لا وجود لها . ولا يمكن تصور انتقال الحركة من الاكثر الى الاقل ، من الاكثر واقعية الى الاقل واقعية . لقد كان عصر مسيحية القرون الوسط بدء تشكل ، بدء ممارسة مبدأ الذاتية الفردية ، والروح الشخصية ، وهو المبدأ الذي كان يشكل مضمونها الاساسي . هذا المضمون يحتوي في ذاته على المبدأ الروماني القائل بالشخصية الحقوقية المجردة كمضمون امتصه وتخطاه ، وهو لا يقدر أن يرجع عما تحقق له اكتسابه ، اذ لا يكون هذا الرجوع تنكرا لشروط وجوده وحسب ، بل يكون كذلك تمردا على جوهره الخاص ، وتمردا على الحركة التي تحفظ هذا الجوهر في عمليات نفيه

المتوالية . بل انه مما لا يعقل من وجهة نظر هيجلية ، التنافر بين شروط الفعل التاريخي والهدف الذي يختطه هذا الفعل لنفسه ، فهذا مما يفسح كذلك مجالا المطوباوية كنتيجة لهذا التنافر . القديم يحوي في ذاته الجديد ، والحاضر يحوي المستقبل الذي يطوره ، بحيث ان الجديد حين يظهر لوعي البشر ، تكون ساعة مجيئه قد حانت . وبهذا المعنى تبدو الفكرة الماركسية القائلة ان الانسانية لا تطرح على نفسها الا المشكلات التي تستطيع حلها ، أو التي تكون شروط حلها قد توفرت ، تبدو أنها تنحدر مباشرة من العقلانية الهيجلية . ولكن ، هل يمكن لهذا أن يفسر الفشل كاحتمال أساسي ملازم للنشاط التاريخي ؟ أفلا يمكن أن تقبل التفكير في الفشل بكل قسوته ــ « وفي أية شروط يكون الفشل التاريخي ممكنا ؟ » حتى يتسنى فهم النجاح ، وحتى يقدر ثمنه ، وحتى يرد بالضبط الى شروط امكانه ؟ أو ليس ذلك التصور الصوفي للصيرورة الاجتماعية ، ذلك الانتشاء الذي قام في جانب كبير من الحركة العمالية (وبالضبط في الجانب غير المقاتل ، الميال الى التسوية ، والمسايرة ، وتعاون الطبقات) ــ قام بدعم قرن كامل من الخطب المتفائلة اللفظية ، المتحمسة الفارغة ، أو ليس ذلك التصور مسؤولا عن كثير من الاخفاقات ، والخيبات والمراوحة في المكان ، لا بل عن الانتكاس ؟ والواقع أن ماركس وانجلس ، في دراساتهما التاريخية ، وكلما كان عليهما أن يحللا مرحلة

معينة في صراع الطبقات في أوروبا ، كانا يديران ظهريهما بحزم لهيجل ولصوفية « اتجاه التاريخ » التي استمدت منه. وفي مضمار الملموس التاريخي، لم يهتما الا بمشروعات ثورية جاءت قبل أوانها ، والتي لم تجتمع كل شروط تنفيذها ــ وهي لا تجتمع أبدا ــ والتي توجب فيها اعتبار الخفايا الدقيقة للصدفة ، والحوادث المفاجئة الخ ... من ذلك عمومية باريس ١٨٤٨ الخ ... ألم يبين انجلز نفسه في « الحروب الفلاحية » (Les guerres paysannes) كيف أن طليعة ثورية تتوصل في ظل الوجدان الديني الكاذب ، الى تحديد هدف صحيح من الناحية الثورية ، لكنه بعيد عن متناولها ؟ ومأساة منذر Munzer ليست مجرد نادرة تاريخية ولا تكشف عن فولكلور وطني وحسب . وكم من مرة وجدت طليعة بروليتارية ، أو قادة ثوريون أنفسهم في طريق مسدود كأن يكونوا قد اضطروا الى الشروع بعملية محددة رغم علمهم أن شروط نجاحها لم تجتمع بعد ، ذلك أن عدم القيام بالعملية ، كما قال ماركس عن العمومية ، والتهرب وعدم اثبات الحضور سيجر في هذه اللحظة وفي هذه الشروط ، فشلا أسوأ . والتفاوت بين ما يتوجب عمله وما يمكن عمله ينبغي أن ينقص الى أقصى ما يمكن ، فلا ينظر اليه على أنه « قدر محتوم » ينبغي السعي الى عدم مجابهته علما بأن ذلك محتم في بعض الاحيان . لم يكن لينين رحيما بالمفاهيم النظرية عند روزا لوكسمبورغ ــ

العفوية ، نسيان المسألة الوطنية ، الديمقراطية الخ ••• ــ ولم يجد ، مع ذلك ، كلمة يلومها بها على انجرافها الكلي في حركة التمرد السبارتاكي ، وهو تمرد كانت هــي نفسها تنتقده وتستشعر فشله • غير أن تزعم هذا الفشل المحتمل كان بالنسبة اليها واجبا ثوريا ، آنذاك ، في الظروف الالمانية لعام ۱۹۱۹ • وهذا الواجب يعني الضرورة في هذه اللحظة المعينة من التاريخ التي تم ادراكها نظريا ، والاضطلاع بها عمليا حتى النهاية •

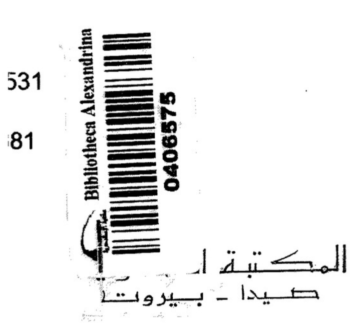
ان ديالكتيكية روحانية متطبعنة ، تحكم زمن التاريخ الواقعي تتوصل الى اعاقة فهم هذا التاريخ • اذا كان النظام الاشتراكي متعاقبا ، اذن متفوقا على النظام الرأسمالي ، فمن غير « المفهوم » أن يكون من الممكن حصول ارتداد من الاشتراكية الى نموذج جديد من الرأسمالية ، مثلا • وبما أن مثل هذا الارتداد تطور « مخالف للطبيعة » فان تدخل قضية خارجية ، مصطنعة ، يحركها العدو الخارجي ، وحده يسمح بتفسير ذلك • هذه « المادية التاريخية » تتحول اذن الى مفهوم للتاريخ مثالي ــ متآمر • وفي داخل المعسكر الاشتراكي ، في مرحلة البناء المظفرة ، الخ ••• ، يعتبـر السلبي غير جوهري ، ولا يمكن أن ينبثق مــن الايجابي ذاته • وتكون المسألة اما صمود الماضي ، ورجوع المستغلين القدامى بالقوة ، واما مؤامرة خارجية ، وفي الغالب يجتمع العاملان • ان حل هذا النوع من التناقض يرجع اذن الى

الشرطة (أو التدخل العسكري) لاعادة الشعب الى حقيقته وتوعيته على مصالحه الحقيقية ، بعد ان فقد صفاء بصيرته بسبب الموجهين الاشرار الذين عبثوا بثقته الخ .

ان الفكرة التي ترى أن الانتقال الى الاشتراكية فعل تاريخي لاينعكس ، والتي تلزم أخلاقيا مجتمعا معينا بكامله ازاء نفسه ــ أو ازاء بلدان شقيقة في حال الاخفاق ــ تستخدم ميتافيزيقا الصيرورة . ان ثمة ، فيما وراء المصالح الاستراتيجية للقوة الكبرى المهددة تعليلا ينطلق من الحق الى الفعل ، من منطق التاريخ الى تجسده في الواقع الاجتماعي المباشر .

(مقاطع) ريجيس دوبري

ايار ١٩٦٩



531
81
Bibliotheca Alexandrina
04066575
المكتبة ا
صيدا - بيروت